kitabweb-2013.forumsmaroc.com

تاريخ ميورقة

تأليف
أبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي
المتوفى ٦٥٨ هـ

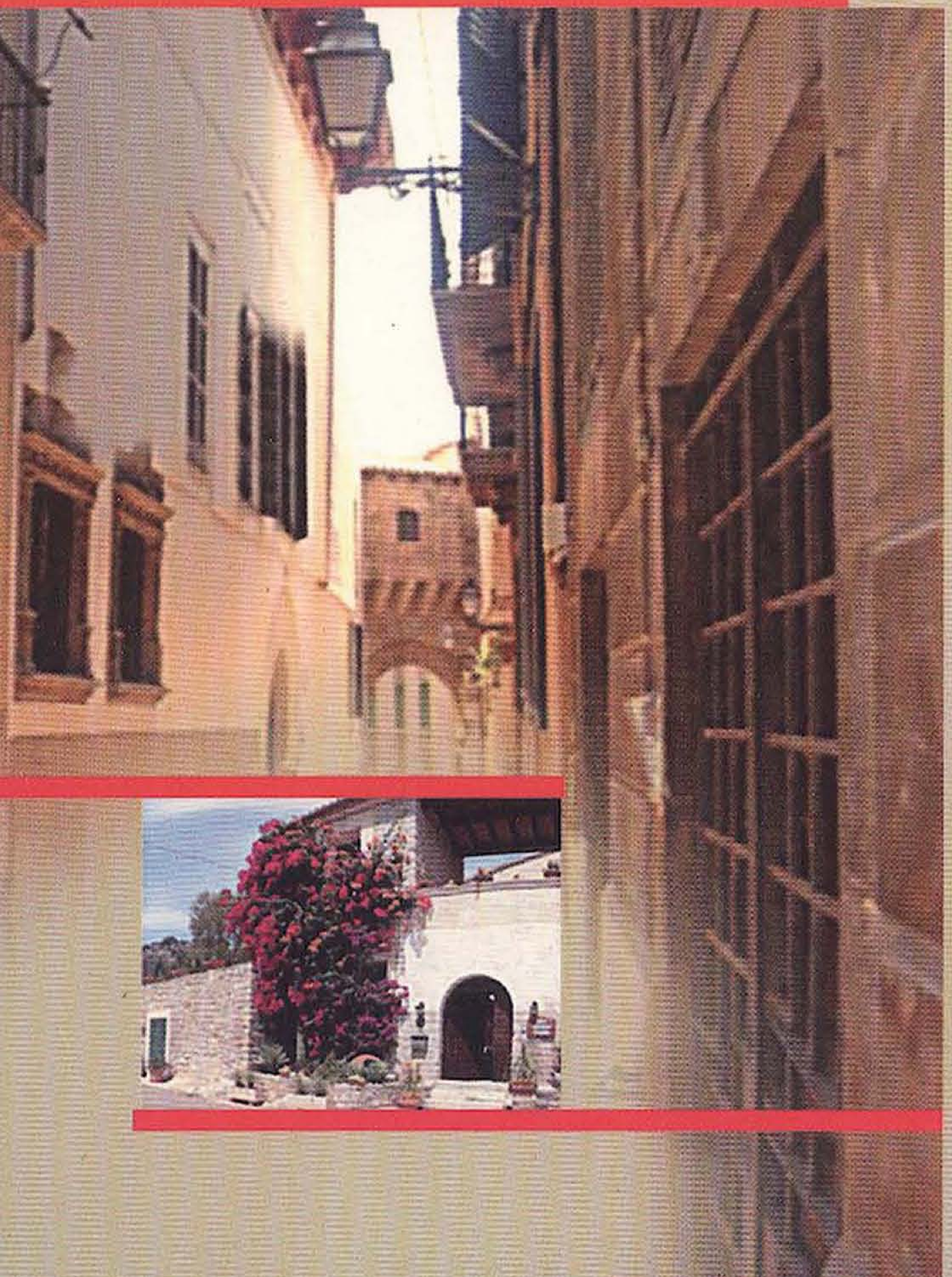

دراسة وتحقيق
الدكتور محمد بن معمر
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة وهران

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

تاريخ ميورقة

تأليف

أبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي

المتوفى سنة ٦٥٨ هـ

دراسة وتحقيق

الدكتور محمد بن معمر

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة وهران

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

الكتـاب :تاريخ ميورقة
المـؤلف : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي
المحقق : الدكتور محمد بن معمر
النـاشر : دار الكتب العلميـة ـ بيروت
عدد الصفحات: 160
سنة الطباعة: 2007 م
بلد الطبـاعة : لبنـان
الطبعـة : الأولى

Title : TĀRĪH MAYŌRQAH
(History of Majorca)
Author : Abu al-Mutarrif Ahmad ben 'Umayrah
Editor : Dr. Muhammad ben Ma'mar
Publisher : Dar Al-kotob Al-Ilmiyah
Pages : 160
Year : 2007
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

جميع الحقوق محفوظة
2007م - 1428 هـ

ISBN 2-7451-5596-2

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

من المعروف أن المخطوطات الإسلامية ببلاد الغرب الإسلامي قد ابتليت خلال تاريخها الطويل بآفة الضياع، وذلك بسبب المحن العديدة التي ألمت بها، فقد أنتج أهل العلم بهذه البلاد عددا ضخما من التآليف المختلفة يصعب حصرها، إلا أن أغلبها قد ضاع أو صار في حكم المفقود، ولكن الأمل يبقى قائما في العثور على بعضها سيما في خزائن المخطوطات التي لم تفهرس بعد. ومن المخطوطات التي حفظتها لنا خزانة آل بلّعمش هذا الأثر النفيس والنص الهام الذي أقدّمه للمهتمين بتراث الغرب الإسلامي وهو تاريخ ميورقة لابن عميرة المخزومي.

أولا: مؤلف الكتاب

لم يكن مؤلف هذا الكتاب نكرة في عصره، ولا رجلا مغمورا طاله النسيان، بل كان فقيها ذائع الصيت، أديبا طائر الذكر، معروفا لدى القاصي والداني. فهو أبو المطرّف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي[1]، الذي عاش بين سنتي 582-658هـ/1186-1260م، أي سنة

(1) ليس الهدف من هذه النبذة بسط القول عن حياة أبي المطرّف، ولكنني أقتصر على أهم ما لابد منه، حسبما جرى به العمل عند جمهور الباحثين والمحققين في التعريف بمؤلف المخطوط. وأحيل القارئ الكريم إلى الدراسة الوافية التي تناول فيها الدكتور محمد بن شريفة حياة ابن عميرة بالتفصيل والمصادر التي اعتمدها في بحثه، وقد نشرها المركز الجامعي للبحث العلمي بالمغرب سنة 1966م.

وسبعين سنة هجرية(أربعة وسبعين سنة ميلادية). ويعتبر العصر الذي عاش فيه ابن عميرة من أحفل العصور بالأحداث التاريخية في الغرب الإسلامي عامة والأندلس خاصة، وهي أحداث احتك وتأثر بها وشارك في صنعها.

وقد أجمع مترجموه على تحليته بالنسب المخزومي ومنهم معاصره وابن بلده ابن الأبّار حيث يقول:" وكان بجزيرة شقر بنو عميرة المخزوميون بيت شيخنا القاضي الكاتب أبي المطرف أبقاه الله"[1]. وكانت ولادته في شهر رمضان بجزيرة شقر القريبة من شاطبة، بينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا شرق الأندلس، وهي الجزيرة التي تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون وغيرهم بكل إعجاب لجمال موقعها وسحر طبيعتها.

وأتيحت لابن عميرة الفرصة في هذا العمر الطويل ليصيب من العلم أوفر نصيب سمح به زمانه، ويمكن التميز في حياته الدراسية بين ثلاث مراحل: الأولى تتميز بالإقبال على الثقافة الدينية بوجه عام، والثانية تبرز فيها العناية بالثقافة العلمية العقلية، والأخيرة يظهر فيها الجنوح نحو الثقافة الأدبية، وهو ما أجمله ابن عبد الملك في النص التالي: "وكان في بداية طلبه للعلم شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهله، ثم تفنن في العلوم ونظر في المعقولات وأصول الفقه، ومال إلى الآداب وبرع فيها"[2].

ومن شيوخه الأندلسيين الذين أخذ عنهم وتتلمذ لهم، الشيخ أبو الرّبيع سليمان بن موسى الكلاعي(565-624هـ)، وهو من أكبر أساتذته

---

(1) ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1967، ص 168.

(2) ابن عبد الملك المراكشي أبو عبد الله محمد، الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1973، ج1،ص 152.

وأبعدهم أثرا في حياته، والشيخ أبو الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسي (537-614هـ)، والأستاذ أبو عبد الله محمد بن أيوب السرقسطي(530- 608هـ)، والأستاذ ابن حوط الله الأنصاري (552-621هـ)، والشيخ أبو علي بن الشلوبين، والشيخ ابن عات وغيرهم، وأجازه من المشارقة أبو الفتوح الحصري.

بعد أن فرغ ابن عميرة من حياة الدّرس والتحصيل العلمي وانتهى من التنقل بين شقر وبلنسية وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها بحثا عن الشيوخ، رجع إلى بلنسية بقصد الاستقرار والحصول على وظيفة تناسب ثقافته وطموحه، "ذلك أن ابن عميرة كان منذ البداية يسعى وراء خطة الكتابة لما كانت توفره لصاحبها من الثراء والنفوذ والجاه والسلطان، وللمكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الكاتب في المجتمع الأندلسي"[1].

استهل ابن عميرة حياته الإدارية بالكتابة عن والي بلنسية السيد أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن في سنة 608هـ، وفي سنة 617هـ انتقل إلى إشبيلية وكتب عن واليها الموحدي السيد أبي العلاء الكبير. وفي سنة 620هـ عاد إلى بلنسية وتولى خطة الكتابة عند الوالي السيد أبي زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، وظل متوليا لها حتى سنة 626هـ وهي السنة التي ثار فيها الرئيس أبو جميل زيان ابن سعد بن مردنيش الجذامي على الوالي الموحدي وافتك منه بلنسية، وقد احتفظ الأمير الجديد بابن عميرة كاتبا عنده حتى سنة 628هـ تاريخ انتقاله إلى جزيرة شقر حيث اشتغل مؤقتا بالكتابة عن واليها أبي عبد الله بن مردنيش. وفيما بين سنة 630 وسنة 633هـ اشتغل بوظيفة القضاء في مدينة شاطبة،

(1) ابن شريفة محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1966، ص 85.

وفيما بين سنة 633 وسنة 636هـ كاتبا في مرسية، ومنها توجه إلى غرناطة آخر مرحلة في طريقه إلى العدوة المغربية حيث ينتهي الفصل الأول من حياة ابن عميرة الإدارية في الأندلس(1).

غادر ابن عميرة الأندلس وعبر البحر إلى المغرب يحدوه الأمل في الحصول على عمل في بلاط بني عبد المؤمن بمراكش بعد أن فقده في بلاده التي اضطربت أحوالها وسقط الكثير من قواعدها في يد النصارى. وكان حلوله بمدينة سبتة في أول سنة 637هـ حيث أقام زمنا يسيرا عند واليها صديقه الرئيس أبي علي الحسن بن خلاص البلنسي. وفي السنة نفسها ورد على الخليفة الموحدي الرشيد أبي محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون (630-640هـ) وصحبه حين قفوله من مدينة سلا إلى حضرة مراكش(2).

واستكتبه الرشيد مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وقلّده قضاء مدينة هيلانة شرق مراكش، وقد تأثر ابن عميرة بهذا العزل عن خطة الكتابة وشكا ذلك إلى أصدقائه في رسائله الإخوانية وقصائده الشعرية التي تفيض بالحزن والأسى وندب الحظ. ويبدو أنه عبّر عن تبرّمه بهذا الإقليم لدى بعض حاشية السلطان فتوسطوا لديه عنده حتى نقله سنة 639هـ إلى قضاء الرباط وسلا، وأقام يتولاّه إلى أن توفي الرشيد وخلفه أخوه الخليفة الموحدي العاشر أبو الحسن السعيد (640-646هـ) فأقرّه عليه مدة ثم نقله إلى قضاء مدينة مكناسة الزيتون.

ولما بايع أهل مكناسة الأمير أبا زكرياء الحفصي، كان القاضي أبو

---

(1) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص ص: 85-115.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص156.

المطرّف هو الذي كتب نص البيعة في 20 ربيع الأول 643هـ، وحين قام إليهم الخليفة السعيد بحنق عظيم بادروا بطلب العفو واعتذروا عما بدر منهم وبايعوه من جديد وكتب نص البيعة ابن عبدون في ذي الحجة من نفس السنة[1]. وكان ما أقدم عليه ابن عميرة من أخطر المواقف في حياته وذلك بإسهامه في محاولة فصل مكناسة عن دولة الموحدين التي كانت في طريقها إلى الانهيار. ولما قتل الخليفة الموحدي السعيد في صفر سنة 646هـ، اغتنم ابن عميرة تلك الظروف وغادر مكناسة قاصدا مدينة سبتة، وفي طريقه إليها سلبت منه ثروته في فتنة بني مرين الذين بسطوا نفوذهم على المغرب الشرقي وكانت الدولة الموحدية في ذلك الوقت عرضة لهجماتهم. وقد كتب إلى الشيخ أبي الحسن الرعيني يعلمه بهذه الحادثة وأن ماله المنهوب قد بلغ أربعة آلاف دينار وكان ورقا وعينا وحليا[2].

كان ابن عميرة كثير التطلع إلى إفريقية معمور القلب بسكناها مذ فارق جزيرة الأندلس، لذلك وبعد أن أقام فترة قصيرة في سبتة عند واليها الرئيس الأندلسي ابن خلاص الذي اشتغل بالكتابة عنه فيما يبدو، ركب البحر متوجها إلى إفريقية حيث ينتهي الفصل الثاني من حياته الإدارية في المغرب. ووصل مدينة بجاية في شهر جمادى سنة 646هـ ودخل على صاحبها الأمير أبي يحيى ابن الأمير أبي زكرياء الحفصي وكان صاحبها لأبيه. وأقام ابن عميرة في بجاية حوالي سنتين يعلّم ويدرّس، وكان الطلبة أثناء ذلك يقرأون عليه تنقيحات السهروردي في أصول الفقه التي لم يكن يتعرض لإقرائها إلا

---

(1) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب (قسم الموحدين)، تحقيق ابراهيم الكتاني وآخرون، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985، ص373.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 179 .

من له ذهن ثاقب[1].

وقد أجاز ابن عميرة خلال إقامته ببجاية بعض طلبتها، كما استجاز لنفسه وولديه على سبيل التبرك بعض علمائها، وشارك في المجالس العلمية التي كانت تنعقد بمنزل صديقه ابن محرز البلنسي شيخ الجماعة الأندلسية يومئذ، وكان يحضرها أقطاب الأندلسيين وفي مقدمتهم ابن الأبار وابن الجنان وابن سيد الناس وغيرهم. ولم يتوقف ابن عميرة عن نشاطه الأدبي في هذه المدينة حيث كاتب العديد من أصدقائه[2].

انتقل ابن عميرة من بجاية إلى مدينة تونس حيث مال إلى صحبة الصالحين بها والزهاد أهل الخير برهة من الزمان، ثم نزع عن ذلك[3]. وقد تغلبت عليه رغبته في خدمة الملوك فقنع بوظيفة القضاء في الأقاليم، فتقلده في الأريس وفي قسنطينة ثم في قابس حيث طالت مدته. واستدعاه الأمير الحفصي المستنصر بالله محمد بن أبي زكرياء (647-675هـ) وصار من خواص الحاضرين بمجلس حضرته ومن فقهاء دولته. واستطاع ابن عميرة أن ينعم في هذه الفترة الأخيرة من عمره بالحياة السعيدة التي كان ينشدها في ظل الأمير الحفصي، سيما وأن تونس كانت تعيش يومئذ عصرها الذهبي من مختلف الوجوه. وظل ابن عميرة بالمنزلة الرفيعة من الدولة الحفصية والمكانة العالية عند أهل العلم والأدب إلى حين وفاته بتونس في 20 من شهر ذي الحجة سنة 658هـ[4].

---

(1) الغبريني أبو العباس، عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص253.

(2) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص149.

(3) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص179.

(4) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص180.

وفي ختام هذا التقديم الموجز لحياة ابن عميرة يجدر بنا أن نورد بعض الشهادات في حقه، فهذا معاصره وابن بلده ابن الأبار قد حلاّه بالعبارات التالية: " فائدة هذه المائة والواحد يفي بالفئة، الذي اعترف بإجادته الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يتصف به البديع، ومعاذ الله أن أحابيه بالتقديم، لما له من حق التعليم، كيف وسبقه الأشهر، ونطقه الياقوت والجوهر، تحلت به الصحائف والمهارق، وما تخلت عنه المغارب والمشارق، فحسبي أن أجهد في أوصافه، ثم أشهد بعدم إنصافه، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره، وتناول المنثور والمنظوم على شكره"[1].

وهو عند ابن عبد الملك: "علم الكتابة المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدّهور، ولا سيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان، وله المطولات المنتخبة والقصار المقتضبة، وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالإشارة إلى التاريخ ويودعه إلماعات بالمسائل العلمية منوعة المقصد ...وكان حسن الخلق والخُلق، جميل السعي للناس في أغراضهم، حسن المشاركة لهم في حوائجهم، متسرعا إلى بذل مجهوده فيما أمكن من قضائها بنفسه وجاهه"[2].

أما صاحب الإحاطة فقد قال في حقّه: "وعلى الجملة فذات أبي المطرف فيما ينزع إليه، ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نَسيج وحده إدراكا وتفننا، بصيرا بالعلوم، محدثا مكثرا، راوية ثبتا، سجرا في التاريخ والأخبار، ديّانا مضطلعا بالأصلين، قائما على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جمّ العيون غزير المعاني والمحاسن، وافد أرواح المعاني، شفاف

---

(1) المقري أبو العباس أحمد، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968، ج1، ص315.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص152 وص179.

اللّفظ حرّ المعنى، ثاني بديع الزمان في شكوى الحرفة وسوء الحظ ورونق الكلام ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم والقصور في السلطانيات"[1].

وجاء عنه في عنوان الدراية أنه: "الشيخ الفقيه، المجيد المجتهد، العالم الجليل الفاضل، المتقن المتفنن، أعلم العلماء، وتاج الأدباء، له أدب هو فيه فريد دهره، وسابق أهل عصره، وفاق الناس بلاغة، وأربى على من قبله"[2].

وقال فيه بعض علماء المغرب: "هو قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء، ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها، وشمسها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها مبدع البدائع والتي لم يخض بها قبله إنسان، ولا ينطق عن تلاوتها لسان، إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة، وروية بدرر العلم الفصيحة، ذللت له صعب الكلام، وصدقت رؤياه حين وضع سيد المرسلين في يديه الأقلام"[3].

تلك هي أبرز معالم سيرة أبي المطرف المخزومي الذي عاش حياة إدارية وعلمية حافلة بالأعمال وزاخرة بالأحداث، حيث تقلّد مناصب سامية في دول مختلفة، وتنقل خلالها في كثير من بلدان الأندلس والمغرب وإفريقية، وعاصر أحداثا سياسية كبرى. ولكنها كانت حياة مضطربة متقلبة وهي ظاهرة عامة اتسمت بها حياته في كل أطوارها، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أبناء عصره ووطنه. ويبقى ذلك الأديب الطائر الذكر، المولع بالتاريخ والأدب معروفا لدى القاصي والداني بأناقة أسلوبه المزخرف وغزارة لغته.

---

(1) ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة. تقديم يوسف علي طويل. بيروت: دار الكتب العلمية، 2002، ج1، ص63.

(2) الغبريني، المصدر السابق، ص250.

(3) المقري، نفح الطيب، ج1، ص313.

ثانيا: مؤلفات ابن عميرة

اشتهر ابن عميرة بثقافته الواسعة والمتنوعة، فقد كان كما وصفه صاحب تاريخ آداب العرب، خزانة من خزائن العلوم[1]، وقد رأينا فيما سبق بعض الشهادات في حقه التي تثبت هذا الرأي. وكان متفننا في منقول ومعقول تلك العلوم، مدققا في أصولها وفروعها محدثا مكثرا، راوية ثبتا، متبحرا في التاريخ والأخبار، مضطلعا بالأصلين، قائما على العربية واللغة، بارعا في الأدب وفنونه، مولعا بعلوم الفلسفة والمنطق والفلك والطب. وكانت هذه الثقافة الدينية والعلمية العقلية والأدبية الواسعة نتيجة حياة طلب وتحصيل طويلة، ناهيك عن تقلده المناصب السامية التي مكنته من استنساخ النوادر ودراستها، واهتمامه بقراءة الجديد من إنتاج معاصريه المشارقة والمغاربة، فجاء إنتاجه العلمي ثمرة لتلك الثقافة التي ألّف في حقولها المعرفية مجموعة من التآليف وهي:

1- الرسائل: انتهت إلى ابن عميرة رئاسة صناعة الكتابة والترسّل في عصره، وشهد له بالإمامة فيها فحول الكتّاب والمترسلين من معاصريه ومن جاء بعدهم، فقد وصفه ابن سعيد بقوله: "هو الآن عظيم الأندلس في الكتابة وفي فنون من العلوم"[2]. وقد أنتج عددا هائلا من الرسائل الديوانية والإخوانية، ساعدته في ذلك موهبته البلاغية ومقدرته الكتابية، إلى جانب اتخاذ الترسل حرفة، وشغله خطة الكتابة أكثر أوقات حياته لدى الكثير من الأمراء والخلفاء. وكانت ظروف عمله من أكثرها استدعاء للمكاتبات

---

(1) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب. بيروت: دار الكتاب العربي،1974، ج3، ص322.

(2) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف،1964، ج2، ص363.

والمراسلات بحكم ما ساد ذلك العصر من فتن واضطرابات[1].

ويبدو أن ابن عميرة لم يكن يهتم بجمع رسائله وتدوينها، رغم كثرة المعجبين بها والراغبين فيها من أبناء عصره، ولعل ذلك كان بسبب نظرته المتواضعة إلى هذه الرسائل التي لم تكن تستحق التدوين والطلب كما عبّر عن ذلك في بعضها، وإنما جمعها غيره من تلاميذه ومن أتى بعدهم. ومن هؤلاء صديقه الأديب البلنسي أبو جعفر العقيلي(ت 664هـ) الذي لازم ابن عميرة في إفريقية وجمع مجموعة من تلك الرسائل التي آلت إلى ابن عبد الملك المراكشي، وهي التي نجدها متفرقة في كتابه الذيل والتكملة في تراجم مختلفة.

كما وردت مجموعة من هذه الرسائل في الجزء الثالث من مجموع زواهر الفكر وجواهر الفقر لابن المرابط الذي خصّصه لمعاصريه من كتاب وشعراء الاندلس في القرن السابع الهجري. كما نجد طائفة أخرى من رسائل ابن عميرة في عنوان الدراية للغبريني، وفي رحلة التجاني، وبيان ابن عذاري، والروض المعطار للحميري، وصبح الأعشى للقلقشندي وغير ذلك من المصادر. أما المحاولة الجادة لجمع هذه الرسائل فتلك التي قام بها أبو عبد الله محمد بن هانئ السبتي(ت 733هـ) الذي دوّنها ورتبها في كتاب من سفرين وسمّاه: "بغية المستطرف وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرّف"[2]. وتوجد منه نسختان مخطوطتان في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 232 ك ورقم 233 ك، ولدينا نسخة مصورة عن النسخة الأصلية الموجودة بزاوية تندوف.

---

(1) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص254.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص65.

2- كتاب التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات: وهو كتاب ألّفه في الردّ على "كتاب التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن" من تأليف أحد معاصريه المشارقة وهو أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني من أعلام البلاغة في القرن السابع الهجري وصاحب علم المعاني والبيان، وقد انتهى من تأليفه في شهر رمضان سنة 637هـ، ويعتبر كتاب التبيان من المصادر المعروفة في علم البلاغة إذ وجد طريقه إلى الغرب الإسلامي بزمن يسير بعد تأليفه، فانبرى ابن عميرة للردّ عليه.

وكتاب التنبيهات مخطوط يقع في 69 ورقة وهو مكتوب بخط مغربي وتوجد نسخة منه بمكتبة الأسكوريال تحت رقم 967، ويبدو أنه كان بخزانة السعديين التي آل كثير من مجلداتها إلى خزانة الأسكوريال بعد حادثة القرصنة المعروفة. كما توجد نسخة أخرى منه بالخزانة العامة بالرباط وعليهما اعتمد الدكتور محمد بن شريفة في تحقيق هذا الكتاب والتقديم له، وتم طبعه بمطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة 1991. وقد ألّفه ابن عميرة أثناء إقامته بتونس، وسلك فيه طريقة عرض كلام صاحب التبيان ملخصا ثم يردفه بالتعقيب والمناقشة التي انصبت على الجزئيات، والكتاب لا يخلو من آرائه البلاغية مما يؤكد تنوع ثقافته وسعة اطلاعه.

3- تعقيب على كتاب المعالم للفخر الرّازي: وهو من مؤلفات ابن عميرة المفقودة اليوم، وقد ورد العنوان عند بعض الذين ترجموا له بصيغ مختلفة ولكنها ألفاظ متقاربة. فابن عبد الملك وابن الخطيب يستعملان كلمة "تعقيب"، بينما يصفه ابن فرحون[1] بأنه "ردّ"، أما الغبريني الذي جعله "تعليقا" فقد اطلع عليه وقال عنه: "وقد رأيت له تعليقا على كتاب المعالم في أصول

---

(1) ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: دار التراث، 1972، ج1، ص207.

الفقه لا بأس به، وهو جواب لسؤال سائل، وهو مكمّل لعشرة أبواب حسبما سأل السائل"[1]. ويدل هذا الكتاب على ولع ابن عميرة بالردّ على أعلام المشارقة من معاصريه، كما يؤكد إلمامه بالعلوم العقلية والجدلية وتضلّعه فيها.

وكتاب المعالم الذي عقّب عليه ابن عميرة هو من تأليف الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرّازي (ت 606هـ) صاحب التآليف العديدة في علم الكلام والأصول وغيرهما، وكان إمام الدنيا في عصره كما يقول ابن الأثير[2]. وتمثل مؤلفاته مدرسة جديدة في الكلام والأصول اتسمت بطرقها المقفلة وقوانينها المغلقة وتقسيماتها الكثيرة، وهي تختلف عن طريقة الأقدمين في الأصلين طريقة الغزالي والجويني التي كان ينتمي إليها ابن عميرة فيما يبدو، سيما وأنه كان كثير العناية بكتاب المستصفى للغزالي.

4- اقتضاب من تاريخ المريدين: وهو ثاني كتاب في التاريخ ألّفه ابن عميرة بالإضافة إلى تاريخ ميورقة، ويعتبر من المؤلفات المفقودة اليوم. وقد ورد هذا العنوان عند ابن عبد الملك في الذيل[3] وعند ابن الخطيب في الإحاطة[4]، أما المقري فقد ذكره في النفح قائلا: "وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة"[5]. ولسنا نعلم هل اطّلع المقري على هذا الكتاب كما اطلع على تاريخ ميورقة ونقل عنه أم لا، كما أننا نجهل الدافع الذي جعل ابن عميرة يقدم على اختصار تاريخ المريدين.

---

(1) الغبريني، المصدر السابق، ص253.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983، ج9، ص302.

(3) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص177.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص65.

(5) المقري، نفح الطيب، ج1، ص314.

أما الأصل المختصر فهو من تأليف أبي مروان عبد الملك بن محمد ابن أحمد الباجي المشهور بابن صاحب الصلاة (ت 577هـ) الذي ألّف كتابين في التاريخ: أولهما كتاب ثورة المريدين الذي اختصره ابن عميرة، والثاني كتاب تاريخ المن بالإمامة الذي حقق السفر الثاني منه عبد الهادي التازي ونشرته دار الغرب الإسلامي، وهو الجزء الباقي من الكتاب. وقد أشار ابن صاحب الصلاة في هذا الجزء من المن إلى كتابه تاريخ المريدين في سبعة مواطن، في ستة منها أورده بعنوان تاريخ المريدين، وفي الموطن السابع والأخير ذكره بعنوان ثورة المريدين[1]. وبهذه التسمية الأخيرة أشار إليه ابن الأبار ونقل عنه في الحلة السيراء[2]. وسماه ابن سعيد "تأريخ الدولة اللمتونية" في تذييله على رسالة ابن حزم[3].

يتناول كتاب ثورة المريدين تاريخ المرابطين وقيام المريدين عليهم في غرب الأندلس سنة 539هـ. وكلمة المريدين هي الاسم الذي عرفت به الطائفة الدينية التي تزعمها أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي الذي ادعى المهدوية، وكان أول الثائرين على المرابطين بالأندلس في وقت رسمه لأتباعه من هذه السّنة القارضة ملك اللمتونيين كما يقول ابن الأبار[4]، وكان شعار المريدين التهليل والتكبير. فهذه المرحلة القلقة المضطربة من تاريخ الأندلس هي التي عالجها ابن صاحب الصلاة في هذا الكتاب، ويبدو أنه كان ينوي الاقتصار على ثورة المريدين ثم وسع آفاقه إلى تدوين تاريخ شامل للدولة الموحدية فكتب عنها تاريخ المن بالإمامة.

---

(1) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط3، 1987، الصفحات: 68- 91- 92- 129- 284- 303- 321.

(2) ابن الأبار، الحلة السّيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، 1985، ج2، ص208.

(3) المقري، نفح الطيب، ج3، ص181.

(4) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص198.

5- تاريخ ميورقة: موضوع هذه الدراسة ولنا إليه رجعة.

6- المواعظ: لقد ألحّ الأندلسيون خلال عصر المؤلف في معارضة الكتابة في الزهديات والمواعظ المشرقية والسّير على منوالها، ومنها رسالة ملقى السبيل لأبي العلاء المعرّي التي عارضها أبو القاسم السهيلي وسمى معارضته: "حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل"، وأبو العباس الغمّاز وسمى كتابه: "مفاوضة القلب العليل على طريقة أبي العلاء المعري في ملقى السبيل"[1]. وأبو القاسم القرطبي وأبو الربيع الكلاعي وغيرهم.

وكان صاحبنا ابن عميرة من المساهمين في هذا الفن، وقد أشار إلى مواعظه ابن عبد الملك في موضعين من ترجمته، جاء في الأول: "وله فصول وعظية على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي"[2]، وقال في الثاني: "وله مجالس وعظية كان يصنعها للواعظ الفاضل الصالح أبي محمد بن علي بن أبي خرص رحمه الله"[3].وقد ساق ابن عبد الملك في الذيل أمثلة من تلك الفصول والمجالس، كما توجد أمثلة منها أيضا في رسائله، ولا يُعلم إذا كانت تلك المواعظ قد جمعت ودونت في كتاب على غرار ما فعل ابن هانئ في الرسائل.

7- مؤلفات أخرى: يستفاد من المصادر التي ترجمت للمؤلف وفي مقدمتها ابن عبد الملك وابن الخطيب، أنه ترك آثارا ومؤلفات أخرى ولكنها لم تذكر عناوينها. فقد جاء في الذيل في معرض الكلام عن مؤلفات ابن عميرة عبارة "إلى غير ذلك من التعاليق"[4]، وفي الإحاطة "إلى غير ذلك من

---

(1) العبدري أبو عبد الله، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1968، ص241.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1، ص169.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص170.

(4) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1،ص177.

التعاليق والمقالات"[1]. وهي من مؤلفاته المفقودة اليوم.

ثالثا: عنوان الكتاب

وردت الإشارة إلى هذا الكتاب عند ابن عبد الملك في الذيل على النحو التالي: "وله تأليف في كائنة ميورقة وتغلّب الروم عليها"[2]، والعبارة نفسها ذكرها ابن القاضي في جذوة الاقتباس[3]، وسمّاه ابن فرحون في الديباج بالتسمية نفسها[4]. أما طبعة دار المعارف القاهرية القديمة لإحاطة ابن الخطيب فقد ورد فيها على أنه تأليف في كائنة المرية، وهي طبعة تم الاعتماد في نشرها على المخطوط المحفوظ في جامع الزيتونة بتونس الذي ذكرت فيه العبارة سهوا أو خطأ من الناسخ[5].ولكن بقية نسخ الإحاطة المخطوطة والطبعات الجديدة تتفق في تسمية الكتاب مع ما ذهبت إليه المصادر السابقة من أنه تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها[6].

والظاهر أن بعض المتأخرين الذين اعتمدوا طبعة القاهرة للإحاطة في ترجماتهم لابن عميرة، قد وقعوا في الخطأ نفسه حين أشاروا إلى الكتاب على أنه تأليف في كائنة المرية، ومن هؤلاء المؤرخ ابن زيدان في الإتحاف[7]، والزركلي في الأعلام[8]، وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص65.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص176 .

(3) ابن القاضي، جذوة الاقتباس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973، ج 1، ص 146.

(4) ابن فرحون، الديباج، ج 1، ص207.

(5) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص287.

(6) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص65.

(7) ابن زيدان عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. الدار البيضاء، ط2 ، 1990، ج 1، ص301.

(8) الزركلي خير الدين، الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين، 1995، ج 1، ص 159.

وغيرهم. أما المستشرق الإسباني جنثالث بالنثيا الذي جعله كتابا في فضائل ميورقة وتاريخها، فقد عاد في الصفحة ذاتها ليؤكد التسمية نفسها الواردة عند ابن عبد الملك وغيره(1).

أما المقري فقد أشار إلى الكتاب في موضعين من موسوعته نفح الطيب، حيث يتفق مع المصادر السابقة في التسمية نفسها، ولكنه ينفرد في الموضع الثاني عن هذه المصادر حين يشير إليه على أنه "تاريخ ميورقة" وينقل عنه(2)، وهذه التسمية هي الموجودة في النسخة المعتمدة في التحقيق. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل فيما إذا كانت هذه التسمية أو التي سبقتها هي العنوان الحقيقي للكتاب، وأيهما كانت من وضع المؤلف. يبدو أن عبارة "تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها" التي ذكرها ابن عبد الملك ونقلها من جاء بعده هي تعبير ووصف للعنوان أكثر مما هي عنوان، وإن كانت تعبّر عن المحتوى الحقيقي للكتاب الذي يتناول كائنة(حادثة) سقوط جزيرة ميورقة وليس تاريخها بالمفهوم الشامل حسبما يوحي به العنوان الثاني وهو "تاريخ ميورقة" المثبت في النسخة المخطوطة والمشار إليه في نفح الطيب.

أما عن علاقة المؤلف بالعنوان فإنني أشك أن يكون ابن عميرة قد وضع اسما للكتاب آية ذلك العبارة الواردة في مقدمة الكتاب التي تقول: "هذا ذكر من خبر ميورقة وتغلّب الروم عليها، من حين أدارت الروم أمرها، وأرادت أسرها، إلى أن محقت حقها، وملكت رقها، وأخرجت الإيمان من قلبها، وزجرت أغربتها لفل غربها"، وهي فقرة طويلة لا تصلح أن تكون

(1) آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1955، ص305.

(2) المقري، نفح الطيب، ج1، ص314، وج4، ص469.

عنوانا للكتاب، وأن سياق الكلام فيها يوحي بأن المؤلف لم يكن يقصد بها تسمية الكتاب، سيما وأن مؤلّفي تلك العصور غالبا ما كانوا يضعون عناوين مسجوعة لمؤلفاتهم ويشيرون إلى ذلك في المقدمة.

وعليه فإنه من الأرجح أن يكون عنوان "تاريخ ميورقة" الوارد في النسخة المخطوطة من وضع الناسخ، وأن هذا العنوان هو الذي عرف به الكتاب وتداوله الناس، في عصر المقري (أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلاديين)، وقد أبقيت على العنوان نفسه وبه أقدّم الكتاب للقارئ الكريم وإلى كل مهتم بتراث الفردوس المفقود.

رابعا: الباعث على تأليف الكتاب

ذكر المؤلف في مقدمة الكتاب أن الباعث على تأليفه كان بطلب من أحد إخوانه من أهل جزيرة ميورقة. وكان هذا الرجل الذي لم يذكر ابن عميرة اسمه من أثرياء الجزيرة وأغنيائها وأصحاب الجاه فيها أي كان متربا كما قال المؤلف، ثم عاد تربا أي فقيرا قليل المال في ديار الغربة بعد سقوط ميورقة في يد النصارى. وكما أهمل المؤلف ذكر اسم هذا المترب، بخل علينا أيضا بتحديد المدينة أو البلد الذي لجأ إليه وصار فيه تربا.

بعد أن سقطت ميورقة وقواعد وحصون شرق الأندلس الأخرى على يد مملكة أراجون، هاجر الكثير من أبناء هذه الجهات ممن رفضوا العيش تحت حكم النصارى إلى مدن وحواضر بلاد المغرب وإفريقية. فاستقرت تلك الجماعات الأندلسية اللاجئة في سبتة ورباط الفتح وبجاية وتونس وغيرها من المدن التي زارها ابن عميرة واشتغل في بعضها فسنحت له الفرصة أن يختلط بتلك الجماعات ويخدمها بقلمه وجاهه. لأنّ النكبة التي حلّت بهؤلاء قد أفقدتهم دورهم وأملاكهم وحملتهم على ترك أوطانهم، مما

دفع ابن عميرة إلى بذل مجهود دائم من أجل إيوائهم وتوطينهم في مهاجرهم ومساعدة بعضهم في الحصول على مناصب عمل. ومن الخدمات الجليلة التي أدّاها إلى مواطنيه من أهل شرق الأندلس استصداره ظهيرا من الخليفة الموحدي الرشيد يقضي بإسكان هؤلاء في مدينة رباط الفتح، وقد تولى بنفسه كتابة هذا الظهير في شهر شعبان سنة 637هـ أثناء توليه الكتابة عن الخليفة المذكور[1]. ويجمل ابن عبد الملك هذه الخصلة البارزة من شيمه قائلا: "وكان حسن الخلق والخُلُق، جميل السعي للناس في أغراضهم حسن المشاركة لهم في حوائجهم، متسرعا إلى بذل مجهوده فيما أمكن من قضائها بنفسه وجاهه"[2].

يتبين مما سبق أن استقرار العناصر المهاجرة واللاجئة من شرق الأندلس لم يكن مقتصرا على مكان أو مدينة واحدة من بلاد العدوة، ولكنها توزعت على مجموعة من تلك المدن، وأن خدمة ابن عميرة بقلمه وجاهه لم تقتصر على جماعة دون أخرى من هؤلاء. فقد كان كثير التوصيات والشفاعات في حقهم، فتجده يستوصي إما بعالم شريف، أو بشاعر مدين، أو بعزيز قوم ذل، أو برجل فقد ثروته وماله، أو بمن نبا به الوطن وأنحى عليه الزمن. وكان ممن خدمهم المؤلف هذا الرجل الميورقي الذي استجاب لرغبته في تدوين خبر سقوط جزيرة ميورقة. ففي أي بلد من بلدان المغرب وإفريقية كانت الاستجابة لهذه الرغبة؟ هذا ما سنعود إليه في العنصر الموالي.

خامسا: تاريخ تأليف الكتاب

لم يقتصر المؤلف على إهمال ذكر المكان الذي استجاب فيه لتأليف

(1) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص122.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص179.

الكتاب، بل سكت عن تاريخ التأليف أيضا، ولم نجد من بين الذين ترجموا له من ملأ هذا الفراغ، لذلك فلسنا نعلم بالضبط متى ألّف ابن عميرة هذا الكتاب غير أننا متأكدون من أنه قد ألّفه خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 627هـ تاريخ سقوط جزيرة ميورقة وسنة 658هـ تاريخ وفاته. وكما هو معلوم فإن هذه الحقبة الممتدة على ثلاثة عقود وهي المرحلة الأخيرة من حياة المؤلف، قد قضى العقد الأول منها(627-637هـ) في شرق الأندلس متنقلا بين قواعده، وقضى العقد الثاني(637-646هـ) في حواضر المغرب الأقصى، وأنهى العقد الأخير(646-658هـ) في مدن إفريقية.

وإذا استثنينا الفترة التي قضاها المؤلف في شرق الأندلس على اعتبار أنها ليست بدار غربة بالنسبة للميورقي صاحب طلب التأليف، وإذا أخذنا في الحسبان عبارة المؤلف الواردة في مقدمة الكتاب التي تقول: "وأتيت بالأخبار عن ذلك الأمر الغريب، وأثبته في الزمن القريب"، فإنه من المحتمل أن يكون ابن عميرة قد وضع تأليفه في المغرب الأقصى وتحديدا أثناء توليه قضاء الرباط وسلا.

ومما يقوّي هذا الاحتمال أن الفترة التي قضاها المؤلف بالرباط كانت مليئة بالمكاتبات الإخوانية إلى أصدقائه في الأندلس ومراكش وسبتة، كما أشار هو نفسه إلى كثرة إنتاجه الأدبي في هذا العهد إذ يقول من رسالة بعث بها إلى ابن مفوز: "والأشعار في هذا الوقت كثيرة، والرسائل في كل فن شهيرة، والوقت لا يسع تقييد ما أردت أن تقفوا عليه منها، ولعل ذلك يكون والدار صقب، والمزار كثب". وقد بلغ من نشاطه الكتابي بالرباط أن استنفذ ما كان معه من ورق فكتب إلى صديقه ابن مفوز الشاطبي يرجوه أن يبعث إليه شيئا من هذا الورق المصنوع في شاطبة فيقول: "والكاغد الذي وعدتم به بلغت منه حدّ الإفلاس، وتكفف من يضن به من الناس، فأحسنوا به العون،

وأمدّوا منه بما ترون"[1]. تلك هي بعض العناصر الفرضية المتعلقة بمكان وتاريخ تأليف تاريخ ميورقة، فأرجو أن تكون صائبة أو يتاح لغيري تمحيصها.

سادسا: أسلوب الكتاب

يقول ابن عبد الملك في وصف تاريخ ميورقة: "إن أبا المطرّف نحا فيه منحى عماد الدين أبي عبد الله محمد بن محمد الأصبهاني في تأليفه الفتح القسي في الفتح القدسي"[2]. والمعروف أن العماد الأصبهاني (519-597هـ)[3]، كان في تاريخ الأدب أحد أركان وأعمدة الكتابة العربية البارزين والمسؤولين في الوقت نفسه عن قيود السجع والمحسنات البديعية التي قيدت النثر العربي بالتصنع عدة قرون، وله مؤلفات كثيرة في الأدب والتاريخ. وقد أرّخ العماد في هذا الكتاب لفتوحات صلاح الدين الأيوبي ابتداء من حطّين واسترجاع بيت المقدس سنة 583هـ/1187م حتى سنة 589هـ/1193م تاريخ وفاة صلاح الدين، والكتاب مطبوع عدة مرات أولها في ليدن سنة 1888م.

وقد التزم العماد في الفتح القدسي أسلوب السجع وأكثر من المحسنات البديعية، واستطاع أن يروي أحداث التاريخ بهذا الأسلوب الذي تغلب عليه الزخرفة والتنسيق. وممن اعتمد على هذا الكتاب ونقل عنه المؤرخ والفقيه المحدث أبو شامة شهاب الدين المقدسي (599- 665هـ) في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين أي دولة نورالدين محمود بن زنكي ودولة صلاح الدين الأيوبي. وقد علق عليه في المقدمة قائلا: "وصنّف الإمام

(1) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص128.
(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص176.
(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، 1971، ج5، ص147-153

العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد الأصبهاني كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة، أحدهما الفتح القدسي والثاني البرق الشامي، وهو فيهما طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه، فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف للحوادث والوقائع"[1]. هكذا استثقل المقدسي أسلوب العماد في كتابه واعتبره مملا لمن يريد معرفة أحداث التاريخ والاطلاع عليها، فاستطاع في مهارة بارعة أن يؤلف كتابه الروضتين الذي يتناول الفترة(540-589هـ) بشكل متواز وذلك عن طريق جمع مقتطفات حسنة الاختيار من مختلف المصادر المعاصرة في مقدمتها مؤلفات العماد.

وقد لقي كتاب الفتح القدسي إقبالا كبيرا ليس في الأوساط الأدبية المشرقية فحسب بل وفي نظيرتها بالأندلس والمغرب أيضا. فقد اختصره ابن الأبار بكتاب سماه"الوشي القيسي في اختصار الفتح القسي"[2]، وشرحه أو اختصره في مجلد متوسط أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك ابن القطان(562-628هـ) والد أبي محمد ابن القطان صاحب نظم الجمان، وأسماه "تقريب الفتح القسي"[3]. أما صاحبنا ابن عميرة الذي كان مولعا بالرد على المشارقة من معاصريه والتعقب عليهم، فإنه لم يسلك ما سلكه ابن الأبار وابن القطان في شرح الفتح القدسي واختصاره ولكنه عارض هذا الكتاب على اختلاف في الموضوع، ولعله أراد أن يلفت الأنظار إلى شخصه بهذا التأليف، سيما وأنه قد ذكر الهدف من تأليفه حين قال في المقدمة: "وهو

---

(1) المقدسي شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين. بيروت: دار الجيل، 1871، ج1، ص4.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج6، ص258.

(3) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج8، القسم الأول، ص167.

لأحد الرجلين متعلم لصياغة الكلام، ومتألم من صناعة الأيام، هذا يتعوذ من سوء القدر، وذاك يتعوذ صوغ الفقر والتقوص على الدّرر، وقد يجتمع الأمران بواحد، فيحصل من الكلام على فائد، ومن العلم بما جرى على شيء زائد".

إن ابن عميرة وغيره من كتاب عصره يمثلون حلقة مهمة ومرحلة متميزة في سلسلة تطور النثر الفني في الأدب الأندلسي، وينتمون إلى مدرسة لها طابعها الخاص، هي أشبه ما تكون بمدرسة القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني المشرقية والموازية لها تقريبا من الناحية الزمنية. ثم إن هذه المدرسة هي التي مهدت لظهور جيل من الكتاب عرفهم القرن الثامن الهجري فكانت قدوة مباشرة ونموذجا حيا لهم أمثال ابن الخطيب والشريف الغرناطي وابن شبرين وعبد المهيمن الحضرمي وغيرهم. والمعروف أن هذه المرحلة التي يمثلها ابن عميرة من مراحل النثر الأندلسي على عهد الموحدين قد اتسمت بالتكلف والإسراف في الصنعة، وكانت المرحلة التي سبقتها على عهد ملوك الطوائف والمرابطين قد عرفت بصناعتها الدقيقة من سجع وجناس وطباق وغيرها من محسنات البديع وألوان الزخرفة على نحوما هو موجود في ذخيرة ابن بسام وقلائد ومطمح ابن خاقان.

ولا يختلف أسلوب ابن عميرة في كتاب تاريخ ميورقة عن أسلوبه في رسائله الديوانية والإخوانية الضخمة التي اشتهر بها، وأن خصائص نثره هي الخصائص ذاتها التي عرفت في النثر الفني منذ القرن الرابع الهجري وظلت تتطور وتتعقد بعد ذلك، وهي خصائص تقوم على السجع بألوانه، والجناس بمختلف أشكاله، وضروب المقابلة والطباق مع متانة العبارة، وقوة البيان، ودقة الوصف. ومن خصائص نثره أيضا الإكثار من التلميحات والإشارات والتوريات والاقتباسات واستعمال مختلف المصطلحات والألفاظ الفقهية والمنطقية وغيرها من الألفاظ العلمية التي تتردد في كلامه. وكذلك توظيف

الأمثال العربية والاستشهاد بها. وقد وضع ابن عميرة نظرية خاصة به في السجع أشار إليها في كتابه التنبيهات بقوله: "وقصر الأسجاع محتقر مخل، وطولها المتفاوت مرذول ممل، فتكون وسطا بين الإفراط والتفريط، والمساواة بينهما عدل لكن لا كل مساواة بحيث تخرج إلى الأوزان الشعرية"[1].

وعلى العموم فإن أثر ثقافة ابن عميرة الواسعة والمتنوعة في أسلوبه وكتابته الأدبية يبدو واضحا والمسحة العلمية عليه تظهر جلية، وهذا المعنى هو الذي نبّه إليه أحد المعجبين به وهو الغبريني حين قال: "والناس يتداولون كتبه ويستحسنونه ويؤثرونه على كتب غيره ويفضلونه، وبالواجب علم الله أن يكون كذلك لسلوكه حسن منهجه الذي هو فيه أول سالك، وما رأيت من الكتّاب ما أعجبني مثل كتب الفقيه أبي المطرف إلا كتب أبي جعفر بن عطية، والكتّاب كثير، وكُتب هذين الرجلين عندي مقدم على غيرهما، والذي أوجب تقدم الفقيه أبي المطرّف في كتابته إنما هو أن الرجل من أهل العلم فكتابته علمية أدبية، وكتابة غيره مقتصرة على نوع من الأدب، وهذا المعنى هو الذي تميز به عمن عداه، وسبق به من سواه"[2].

سابعا: محتوى الكتاب

1. ميورقة قبل السقوط:

إن الكتاب لا يقدم لنا تاريخا شاملا ومفصلا لجزيرة ميورقة خلال عهودها الإسلامية المتعاقبة حسبما يوحي به العنوان، ولكنه يؤرخ للعهد الأخير منها(606-628هـ/1209-1230م) ويعالج مرحلة السقوط النهائي

(1) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص218.

(2) الغبريني، المصدر السابق، ص 251- 252.

لها على يد الإسبان مع التركيز على الأسباب والعوامل وأطوار السقوط، لذلك نجد في مصادر ترجمة المؤلف العبارة التالية: "وله تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها"، والكائنة هي الحادثة، وهي عبارة بليغة تعبر عن المحتوى الحقيقي للكتاب، وقبل تحليل أحداث السقوط كما رواها المؤلف يجدر بنا أن نقدّم عرضا موجزا لتاريخ الجزيرة قبل أن تؤول إلى ما آلت إليه.

تقع ميورقة كبرى الجزائر الشرقية (جزر البليار) في البحر الزقاقي(المتوسط)، تسامتها من الجنوب مدينة بجاية في المغرب الأوسط، ومن الشمال مدينة برشلونة في شرق الأندلس، ومن الشرق إحدى جزيرتيها وهي منورقة، وغربيها جزيرة يابسة، وهي أم هاتين الجزيرتين وهما بنتاها، بينها وبين الأولى أربعون ميلا، وبينها وبين الثانية سبعون ميلا، وطولها من الغرب إلى الشرق سبعون ميلا، وعرضها من القبلة (الجنوب) إلى الجوف (الشمال)خمسون ميلا[1]. وتبلغ مساحتها الإجمالية حوالي 3640 كم^2، وعاصمتها مدينة ميورقة.

قام المسلمون بأول محاولة لغزو جزيرة ميورقة سنة 98هـ بقيادة عبد الله بن موسى بن نصير، ولم يستطيعوا بسط نفوذهم عليها في محاولات أخرى على عهد الدولة الأموية حتى سنة 290هـ/903م تاريخ فتح الجزيرة بشكل نهائي ومستقر على يد عصام الخولاني زمن الأمير الأموي عبد الله بن محمد(275-300هـ). وفي ذلك يقول ابن خلدون: "كان فتح ميورقة سنة 290هـ على يد عصام الخولاني، وذلك أنه خرج حاجا في سفينة اتخذها لنفسه، فعصفت بهم الريح فأرسوا بجزيرة ميورقة، وطال مقامهم هنالك، واختبروا من أحوالهم ما أطمعهم في فتحها، فلما رجع بعد فرضه أخبر الأمير

---

(1) الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس. بيروت: مكتبة لبنان، ط2، 1984، ص567.

بما رأى فيها، وكان من أهل الغناء عنده في مثلها، فبعث معه القطائع في البحر، ونفر الناس معه إلى الجهاد فحاصرها أياما، وفتحوها حصنا حصنا إلى أن كمل فتحها، وكتب عصام بالفتح إلى الأمير عبد الله فكتب له بولايتها فوليها عشر سنين"[1]. ثم وليها بعد وفاته ابنه عبد الله حتى سنة 318هـ، وخلفه أحمد بن محمد بن إلياس، ثم تعاقب عليها موالي الأمويين حتى سنة 403هـ.

وفي سنة 407هـ استبد بشؤونها مجاهد العامري أمير دانية وبكل الجزائر الشرقية، ثم خلفه عليها ابن أخيه عبد الله العامري سنة 413هـ، وفي سنة 428هـ آل أمرها إلى الأغلب مولى مجاهد العامري وظل على حكمها حتى سنة 458هـ، ثم خلفه عليها صهره سليمان بن مشكيان. وفي سنة 463هـ تولى شؤونها عبد الله المرتضى أغلب، وفي سنة 468هـ استقل بحكمها وبكل جزر البليار بعد سقوط مملكة دانية في يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، واستمر على ولايتها حتى سنة 468هـ تاريخ وفاته، فتولى إمارتها الأمير مبشر ابن سليمان ناصر الدولة وضبط شؤونها بحزم وكفاية إلى غاية سنة 509هـ[2]. وفي هذا التاريخ تعرضت ميورقة للغزو النصراني الذي اتحدت فيه جمهوريتا بيزة وجنوة وإمارة برشلونة وهو أول غزو نصراني لها منذ فتحها[3].

ولكن سرعان ما استعادها المرابطون في أواخر السنة نفسها وعينوا عليها واليا جديدا من قبلهم، فأضحت بذلك الجزائر الشرقية جزءا من الدولة المرابطية الكبرى ودخلت في عهد جديد من تاريخها، سيما بعد تعيين محمد

---

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1992، مج4، ص196.

(2) عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية. بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1984، ص137 وما بعدها.

(3) ابن الكرديوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء(قطعة تاريخ الأندلس)، تحقيق مختار العبادي، مدريد: المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1971، ص122 وما بعدها.

ابن غانية المسوفي واليا عليها سنة 520هـ من قبل الأمير علي بن يوسف. واستطال حكمه لتلك الجزائر زهاء ثلاثين عاما، أي إلى ما بعد سقوط المرابطين وزوال حكمهم نهائيا في المغرب والأندلس سنة 543هـ. فعمل على توطيد سلطانه هناك واستقل بشؤونها وجعل منها ملجأ ومثوى للوافدين والفارين من فلول المرابطين، كما اتخذ من جزر البليار حصنا منيعا لمواجهة الموحدين والأساطيل الصليبية. وبعد وفاته سنة 550هـ خلفه على ولاية ميورقة وجزر البليار ابنه إسحاق بن محمد حتى سنة 580هـ، ثم وليها بعده ابنه الأمير علي بن إسحاق حتى سنة 600هـ تاريخ استيلاء الموحدين عليها. ولكن هذا الأمير كان منشغلا خلال هذه الفترة بصراعه الدامي مع الموحدين في إفريقية، فأناب عنه في حكم ميورقة عمه الزبير ما بين 580-584هـ، ثم أخاه عبد الله ما بين 584-600هـ[1].

وكان الفتح الموحدي لجزيرة ميورقة ضربة شديدة لبني غانية، قضت نهائيا على سلطانهم في الجزائر الشرقية، وكان لهذا الفتح وقع عميق أيضا لدى الممالك النصرانية القريبة، سيما مملكة أراجون في شرق الأندلس، وهذا ما تشير إليه رسالة الفتح التي بعثها الخليفة الناصر من إنشاء كاتبه ابن عياش حين تقول: "ولأخذ ميورقة على صاحب أراغون وبرشلونة أشدّ من رشق النبل، وأهول من وقع السَيف، وأوحش من القطع بحلول الممات"[2]. وكان أول الولاة الموحدين على ميورقة هو أبو محمد عبد الله بن طاع الله الكومي، ثم وليها السيد أبو زيد بن أبي يعقوب يوسف عم الخليفة الناصر،

---

(1) عصام سيسالم، المرجع السابق، ص268 وما بعدها.

(2) ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية(الرسالة السادسة والثلاثون)، باريس، 1942، ص68.

فالسيد أبو عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن[1]. وفي سنة 606هـ وليها رابع وآخر الولاة الموحدين فهو الذي أخذها منه النصارى وبه استهل ابن عميرة الحديث في الكتاب.

2. والي ميورقة أبي يحيى التنملّي:

فبعد الحمدلة والتصلية وذكر الهدف من وضع الكتاب والباعث على تأليفه، شرع المؤلف في الكلام عن والي ميورقة وجزر البليار، مشيرا إلى مكانته في الدولة الموحدية ونهوضه بأعبائها وتأخيره عن الوزارة، ثم تعيينه واليا على بلنسية فترة يسيرة، انتقل بعدها إلى ولاية ميورقة سنة 606هـ حيث استمرت ولايته أكثر من عشرين سنة. تلك هي إشارة المؤلف باقتضاب عن حياة هذا الوالي قبل توليه ميورقة، وهي تحتاج إلى مزيد من التوضيح اعتمادا على مصادر أخرى.

إن الاسم الكامل لهذا الوالي هو أبو يحيى محمد بن أبي الحسن علي ابن أبي عمران موسى التنملي، وكانت تربطه قرابة ببني عبد المؤمن، لأن الخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن بن علي أيام كان بتينملّل رفقة المهدي ابن تومرت تزوج امرأة حرّة اسمها زينب وهي بنت أبي عمران موسى الضرير جد الوالي المذكور، وكان موسى الضرير هذا من شيوخ تينملّل وأعيانهم من ضيعة يقال لها أنسا. وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها، وكانت مصاهرته إياه برأي ابن تومرت. وقد خلف موسى الضرير من الولد الذكور ثلاثة هم إبراهيم ومحمد وعلي والد والي ميورقة، وبنات منهن زينب المذكورة التي أنجبت للخليفة عبد المؤمن ولدين وهما أبو يعقوب يوسف الخليفة من بعده وأخوه أبو حفص عمر وكانا من نبهاء أولاده ونجبائهم

---

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، مج6، ص292.

وذوي الرأي والغناء منهم[1].

وفي عهد الخليفة الموحدي الرابع أبي عبد الله محمد الناصر (595-610هـ) تولى أبو يحيى التنملي الوزارة بعد كل من أبي زيد عبد الرحمن بن يوجان، وأخي الخليفة الناصر إبراهيم بن يعقوب المنصور. وفي ذلك يقول صاحب المعجب: "ثم عزل أبو عبد الله الناصر أخاه إبراهيم وولى بعده أبا عبد الله محمد بن علي بن أبي عمران الضرير جد يوسف بن عبد المؤمن لأمه، وكناه أبا يحيى. فكان هذا الوزير من أحسن الوزراء سيرة وسريرة، وكان يحضه على فعل الخير بجهده، ونشر العدل حسب طاقته، والإحسان إلى الرعية والأجناد، رأى الناس في أيام وزارته من الخصب وسعة الأرزاق وكثرة العطاء مثل الذي رأوا في أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبا منه. ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع"[2].

يستفاد من نص المراكشي الذي يتحدث فيه عن أبي يحيى التنملي حديث العارف به أن كنيته الحقيقية كانت أبا عبد الله، وهو المشهور لمن كان اسمه محمد، ولكن الخليفة الناصر هو الذي أطلق عليه كنية أبي يحيى. كما شهد له المراكشي بحسن السيرة والعدل بين الناس وغيرها من الخلال التي يؤكدها ابن عميرة حين يتناول حكمه لجزيرة ميورقة. ولكن صاحب النص بخل علينا بذكر تاريخ تولية أبي يحيى منصب الوزارة وعزله عنه.

وهو التاريخ الذي أشار إليه ابن عذاري بقوله: "وفي سنة 605هـ قدّم الناصر بعض الولاة على أعماله وأخر آخرين عن أشغاله، فأخّر أبا يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران عن الوزارة وألزمه في داره، وقدّم للوزارة أبا سعيد

(1) المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم العريان والعلمي، الدار البيضاء: دار الكتب، 1978، ص345.

(2) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص441.

ابن أبي إسحاق بن جامع، وبعد أيام من ترتيب ما رتب لخدمته ووزرائه جدّد نظره في أمور البلاد وما يجب لها من التفقد بالصلاح والسداد...فأنهض أبا يحيى إلى بلنسية وثقف أشغالها وأصلح أحوالها"[1].

كان الخليفة الناصر كثير التغيير والتبديل للولاة ورجال الدولة، عاكفا على معالجة الشؤون الإدارية والنظر في أعمال الولايات، ومنها هذه الحركة التي أجراها سنة 605هـ ومسّت أبا يحيى التنملي حين أخّره عن الوزارة وألزمه أن يبقى في داره، ولم تخبرنا المصادر عن سبب ذلك التأخير. ولكن بعد مدة يسيرة وفي نفس السنة عيّن الخليفة الناصر أبا يحيى التنملي واليا على بلنسية، ثم نقله في السنة الموالية إلى ولاية ميورقة.

بقيت الإشارة إلى صفة ذميمة تتعلق بشخص الوالي أبي يحيى التنملي وهي صفة البخل، فعلى الرغم مما اشتهر به من عدل وحسن السيرة أيام تقلده منصب الوزارة، وكذلك خلال توليه جزر البليار مدة طويلة، إلا أنه لم يستطع التخلص من هذه الصفة ومفارقة هذه الشهوة التي لازمته حتى وفاته. وهذا ما أجمله ابن سعيد في العبارة التالية: "وكان بخيلا غير حسن التدبير سامحه الله"[2]. وذكرها ابن عميرة في أكثر من موضع من هذا الكتاب، فقد نعته بأنه كان منهوما لا يشبع من المال، وانه كان كثير الازدياد من الدنيا وحطامها والانقياد من الأطماع في خطامها. وأن هذا المال الجمّ الذي جمعه لم يخرجه في وجه من وجوه البرّ والإثم، مصداق ذلك الخطة التي عرضت عليه أثناء الحصار للدفاع عن المدينة فرفضها بدافع البخل وخشية الإنفاق.

---

(1) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ص253.

(2) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج2، ص467.

3. بوادر العدوان الصليبي على ميورقة:

ومما يؤسف له أن ابن عميرة قد قفز في حديثه عن جزيرة ميورقة من سنة 606هـ تاريخ تولية أبي يحيى التنملي عليها إلى سنة 623هـ تاريخ بداية التحرشات النصرانية على جزر البليار، فحرمنا بذلك من توضيح الأحداث الداخلية وتطوراتها التي عرفتها ميورقة خلال هذه الفترة، واكتفى بالقول إن الجزيرة قد نعمت بالعدل في عهد أبي يحيى. وإذا كان المؤلف قد أهمل الكلام عن الفترة المشار إليها لأن هدفه من الكتاب كان التأريخ لسقوط الجزيرة، فإننا نضيف عاملا آخر وهو بقاء ميورقة وجزر البليار بمعزل عن مملكة قطلونية وأرغون بمأمن من عدوان أساطيلها خلال تلك الفترة التي كانت تعيش فيها هذه المملكة حربا أهلية بين المتنافسين على العرش بعد مقتل بيدرو الثاني سنة 610هـ/1213م، فنعمت ميورقة بالأمن ولم تتعرض لأي خطر خارجي.

إن الحرب الأهلية التي نشبت في مملكة قطلونية وأرغون بعد مقتل ملكها بيدرو الثاني كانت بين ولده الوحيد خايمي الأول أو جاقمه كما يسميه ابن عميرة وبين عميه فرناندو وسانشو المطالبين بالعرش. كما أعلن الكثير من الأشراف استقلالهم وأخذوا يحاربون بعضهم بعضا وعمت الفوضى، واستطاع أنصار الملك خايمي أن ينتزعوه من وصيه أستاذ الداوية، وكان قد بلغ التاسعة من عمره، واحتدم الصراع عندئذ بين حزب خايمي وبين خصومه.

وبعد أعوام من النزاع والحروب استطاع الملك خايمي أن ينتصر على خصومه وينتزع عرشه نهائيا سنة 624هـ/1227م[1]. وأخذ الملك الشاب

(1) أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، =

منذ ذلك الوقت يتطلع إلى الاستيلاء على جزر البليار، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضي الإسلامية في شرق الأندلس.

وفي صائفة سنة 623هـ/1226م ظهرت بوادر العدوان الصليبي على جزر البليار الموحدية، وذلك أن والي ميورقة أبا يحيى التنملي لما احتاج للأخشاب لبناء سفن جديدة تحسبا للأخطار المحتملة، أرسل طريدة بحرية لجلب تلك الأخشاب من جزيرة يابسة بحراسة قطعة حربية، فعلم بعض التجار النصارى بالخبر وأرسلوا إلى أمير طرطوشة يعلمونه بذلك، فقام على الفور بإرسال حملة بحرية تمكنت من أسر الطريدة البحرية بحمولتها من الخشب. ونجا الغراب(القطعة الحربية) من قبضة النصارى وعاد إلى ميورقة فأخبر الوالي بما حدث، فثارت ثائرته وقام بردّ فعل سريع حيث جهّز حملة بحرية إلى شواطئ مملكة قطلونية وأرغون، وكانت نتيجة هذه الحملة الخاطفة الاستيلاء على بعض الأجفان الرومية وأسر رجل نصراني مشهور بالثروة واليسار.

وفي أواخر ذي الحجة من السنة المذكورة وصلت الأنباء إلى والي ميورقة أن مسطحا من برشلونة ظهر على جزيرة يابسة، وأن مركبا من طرطوشة انضم إليه، فجهّز حملة بحرية واسند قيادتها لأحد بنيه وأمره بالتوجه لردّ العدو. وخرج أسطول ميورقة حتى نزل مرسى يابسة فوجد مركبا لأهل جنوة فأخذه وسار حتى أشرف على مسطح برشلونة فقاتله وظهر عليه المسلمون ولكنه اهتبل فرصة انشغالهم عنه فأفلت من قبضتهم، فمالوا إلى مركب طرطوشة واستولوا على ما فيه، وكان فيه أربعة من أثرياء جنوة ومن أهل الثروة واليسار فيها. وعاد قائد الأسطول إلى ميورقة بعد هذه

=

القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 1996، ج2، ص165 وما بعدها.

الحملة البحرية الناجحة وهو يظن أنه غالب الملوك، ولم يكن يدري أنه بعمله هذا قد فتح جبهة خطيرة مع النصارى.

4. الاستعداد للحرب:

يقول المؤلف إن نصارى مملكة قطلونية وأرغون قد ثارت ثائرتهم بعد هذه الاشتباكات البحرية الأولى مع المسلمين، فأخذوا يحرّضون ملكهم خايمي الأول على غزو جزر البليار، ويغيرون صدره على الإسلام والمسلمين، ويذكّرونه بما فعله بهم ابن غانية المرابطي. ولما رأى حماسهم الشديد، أراد أن يقيم الحجة على والي ميورقة فبعث إليه بأحد رجاله يطلب منه ردّ المركب والمال والأسارى ويعرض عليه الصلح والهدنة. ولكن الوالي ركب رأسه واستخف بما عرضه عليه الملك خايمي وتطاول عليه وعامله بكل صلف واحتقار. وعاد الرسول إلى ملكه فأخبره بما سمع ورأى ونقل إليه تهديدات الوالي الموحدي وتحدّيه للنصارى.

إن الملك خايمي الأول الذي كان قد نجح آنذاك في إخماد الحرب الأهلية التي عصفت بمملكته طيلة خمسة عشر عاما، قد وجد الظروف مواتية لخوض معركته الحاسمة ضد ميورقة، فالوالي المسلم قد رفض عروضه، وإن هذه الحرب سوف تشغل نبلاء مملكته عن المنازعات الداخلية، وترضي في الوقت نفسه تجار قطلونية الذين كانوا يتطلعون دوما إلى توسيع نطاق تجارتهم وضمان سلامة سفنهم المهددة من قبل أساطيل جزر البليار، لذلك عقد مجلسه النيابي في برشلونة في شهر صفر 626هـ/1229م، واقترح عليه القيام بحملة عسكرية ضد ميورقة، فوافق أعضاء المجلس بالإجماع على هذا الاقتراح وتحمسوا له.

وبعد حصوله على موافقة المجلس النيابي (الكورتيس) شرع الملك

خايمي في إعداد العدة، ويقول المؤلف بهذا الصدد أنه أمر جنوده بإحضار الدروع والترسة والجياد والحراب العظيمة النصل وغيرها من لوازم الحرب وعتادها، كما أمر أهل سواحل قطلونية بإنشاء السفن اللازمة لذلك. فجمع من الفرسان ألفا وخمس مائة فارس، ومن المشاة عشرين ألف راجل، ومن رجال البحرية وعسكر الماء ستة عشر ألفا. وأمر أن تحشد هذه القوات في مرفأ مدينة سالو القريب من طركونة على ساحل قطلونية ابتداء من شهر جمادى الأولى 626هـ/1229م استعدادا للإبحار باتجاه جزر البليار.

هذا ولم تكن هذه الاستعدادات على الجبهة النصرانية في مملكة قطلونية وأرغون بخافية على والي الجزائر الشرقية أبي يحيى التنملي، فقد كان على علم بذلك، وقام بدوره بالاستعداد لمواجهة هذا العدوان المرتقب، وشرع في شهر ربيع الأول سنة 626هـ في حشد قواته العسكرية، فجمع أكثر من ألفي فارس ومن المشاة حوالي ثمانية عشر ألفا. واستدعى أهل البادية وأمرهم بنقل الأطعمة سريعا، وضبط المراسي بالرجال، وبث العيون في كل مكان تحسبا لأي طارئ.

5. تصدع الجبهة الداخلية الميورقية عشية العدوان الصليبي:

بعد هذه الاستعدادات اللازمة للحرب وحشد القوات ودعم الأساطيل التي قام بها الطرفان الإسلامي والمسيحي، وفي وقت كانت فيه الجبهة الداخلية في ميورقة أشد ما تكون إلى التماسك وتوحيد الكلمة لمواجهة العدو، فإن العكس هو الذي حصل، إذ انقسمت هذه الجبهة وسادها الخلاف وظهر طرفان متنازعان متخاصمان يتعلق الأمر بالوالي أبي يحيى التنملي وقومه من جهة وأجناد الأندلس من جهة أخرى. تلك هي صورة الوضع الداخلي في ميورقة عشية العدوان الصليبي عليها كما يقدمه لنا ابن عميرة ويجعله من أهم العوامل وأبرز الأسباب التي عجلت بسقوط الجزيرة.

يذكر المؤلف أن أكثر مدة الوالي أبي يحيى التنملي أثناء حكمه لميورقة وجزر البليار كانت نافعة وأمور رعيته مرعية وسياسته سديدة مرضية، إلى أن خُلع قومه من الأندلس فأوى إليه طرداء منهم آواهم وتأثر لحالهم، فكان هؤلاء بدأة الشر الذي باض وفرّخ. فقد أشاروا عليه بالاحتراس وحملوه على إساءة الظن بالناس وطلبوا منه أن يمكّنهم من الجماعة الأندلسية من أهل ميورقة لينتقموا منهم ثأرا لما حل بهم في الأندلس من طرد وخلع. وظلوا يغرونه بهم ظلما، ويغيرون صدره عليهم، ويدفعونه إلى أعمال الجور حتى أفسدوا أمره، فساءت الأحوال، وأطلت الفتنة برأسها، وانضم كل ذي حي إلى حيه، وأصبح كل طرف يتوجس خيفة من الطرف الآخر، إلى أن وصلت الأمور إلى حدّ التآمر والتصفية الجسدية كما سنبينه في حينه، بعد أن نوضح موضوع خلع قوم الوالي من الأندلس الذي أشار إليه المؤلف إشارة عابرة.

من المعلوم أنه في منتصف شهر صفر سنة 609هـ/جويلية 1212م قد حلت بالمسلمين في الأندلس نكبة مروّعة وهزيمة كبيرة في معركة العقاب على يد قوات الممالك الإسبانية المسيحية وحلفائها من أهل الصليب الذين حشدتهم البابوية. وكانت خسائرهم فادحة جدا، وهلك معظم الجيش الموحدي، ولم ينج الخليفة الموحدي الناصر مع عدد قليل من حرسه إلا بأعجوبة. وخلفت هذه الهزيمة في النفوس آثارا لا تمحى، واستقر في معظمها شعور بأن الأمر قد ضاع ولا سبيل إلى تلافيه. وفي أيام المستنصر خامس الخلفاء الموحدين (610- 620هـ) تلاشت بقية الأمل في الموحدين، فقد نجم لهم بنو مرين وبدأوا معهم صراع المصير في المغرب، وكان عليهم أن يتجرعوا نفس الكأس التي جرّعوها للمرابطين من قبل[1].

---

(1) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 1، ص: 22.

ولم يعودوا بيتا متحدا تجمعه رابطة واحدة ولكنهم تحولوا إلى أمراء وأشياخ استأثر كل منهم بقاعدة من قواعد الملك الموحدي أو بوظيفة من وظائفه الرئيسية، وظهرت آفة الصراع والتطاحن على عرش الخلافة الموحدية، وأصبح كل واحد منهم يمني نفسه به ويتمنى في ذات الوقت فساد الأمر على من تولاه. فبعد الخليفة المستنصر قام بالأمر أبو محمد عبد الواحد ولكن سرعان ما خرج عليه الخليفة العادل وبويع بالخلافة، ثم قام أبو العلى إدريس المأمون بالأندلس وخرج على أخيه العادل أيضا وكان ذلك ما بين (620-624هـ).

إن انتثار الخلافة الموحدية وتصدع أركانها كان له أبلغ الأثر في العدوة الأندلسية التي أصبحت مكشوفة للعدو ولا يدفع عنها أحد. وأخذ ذلك الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية حول مصير الأندلس يتحدد بصورة حاسمة، إذ سار التقدم النصراني في ذلك الوقت ابتداء من العقد الثالث من القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي في ثلاث مناطق: الأولى وجهتها غرب الأندلس ويسيطر على مصيرها ملك ليون ألفونسو التاسع، والثانية وجهتها وسط الأندلس ويسيطر على مصيرها ملك قشتالة فرناندو الثالث بينما اختص ملك قطلونية وأراجون بمصير الوجهة الثالثة وهي شرق الأندلس. ورغم ما كان يسود هذه الممالك من خلاف وما يقع بينها من حروب إلا أنها كانت تنبذ ذلك وتقف صفا واحدا إذا تعلق الأمر بحرب مع المسلمين.

وفي تلك الآونة التي انشغل فيها البلاط الموحدي بالمغرب بخلافاته وحروبه الأهلية، وتخاذل السادة والحكام الموحدون عن تأدية واجبهم الأول في شبه الجزيرة الأندلسية التي سرى إليها دبيب التفكك، وتطلعت اسبانيا النصرانية إلى السيطرة على ذلك التراث المنهار، اهتزت الأندلس لهذه

الأحداث والتطورات الخطيرة واضطرمت فيها سلسلة جديدة من الثورات القومية على غرار ما حدث في أواخر العهد المرابطي، ورغم ما كان يسود هذه الثورات والحركات من تنافس وخصام إلا أنها كانت تجمع بينها غاية تحرير الأندلس من الموحدين والتصدي للعدوان الصليبي.

وكان أهل شرق الأندلس، الذين اشتهروا بنزعتهم الانفصالية في تاريخ الأندلس منذ الخلافة الأموية، أول من جاهر بالخروج على الموحدين والثورة ضدهم. فظهر بينهم زعيم من بيت عريق في الزعامة والرياسة وهو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي سليل بني هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف الأولى، وكان ظهوره في مدينة مرسية حيث اتخذها قاعدة لإمارته التي استمرت من سنة 625هـ إلى سنة 635هـ. وقد رأى فيه الأندلسيون يومئذ الرجل الذي كانوا ينتظرونه لجمع كلمتهم والدفاع عن بيضتهم ومصداق ذلك شعر من مدحه من الشعراء كابن مرج الكحل وغيره. وجاء عنه في أعمال الأعلام أنه "كان شجاعا، كريما حييًا وفيا، متوكّلا عليه، سليم الصدر، قليل المبالاة بالأمور، محدودا لم ينصر به جيش، ولا وفق له رأي لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال واستعداد"[1]. ولعل استخفاف ابن هود بالأمور واستعجاله في لقاء العدو هو الذي دفع ابن سعيد إلى الحكم عليه بأنه "كان عاميا جاهلا، مشؤوما على الأندلس، كأنما كان عقوبة لأهلها، فيه زويت محاسنها وطوي بساطها، ونثر سلكها"[2].

ويضيف ابن الخطيب أن ابن هود ملك مرسية وقرطبة وإشبيلية

---

(1) ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت: دار المكشوف، 1956، ج2، ص 278.

(2) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج2، ص: 251.

وغرناطة ومالقة والمرية وغيرها، بحال اجتماع وافتراق، وانتزاء من أهلها عليه وشقاق. وتلقب بالألقاب السلطانية كأمير المسلمين والمتوكل على الله ومعز الدين، ودعا للخلافة العباسية استرضاء للعامة، فبعث إليه الخليفة العباسي بالخلع والمراسيم وسماه مجاهد الدين[1].

وكان ابن هود حين شعر بقوة جمعه وأتباعه في أول أمره زحف على مدينة مرسية وطرد أميرها الموحدي الذي كان يدّعيها لنفسه وهو السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وذلك في شهر رجب سنة 625هـ/1228م. وعلى إثر ذلك خرج إلى لقائه والي بلنسية السيد أبو زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فهزمه ابن هود واستولى على محلته ولكنه لم يحاول دخول بلنسية وعاد على مرسية. ولما ازدادت قوته وكثر أتباعه جدّ في محاربة الموحدين وأعلن أنه سوف يحرر الأندلس من سلطانهم.

هذا وقد أجمل ابن عذاري محاربة ابن هود للموحدين في الأندلس ومطاردته إياهم في النص التالي: "وأول من طاع لابن هود من بلاد الأندلس أهل مرسية فخرج إليه المأمون في سنة 625هـ كما تقدم فقابله وقاتله فوقعت الهزيمة على ابن هود، وبعد انصراف المأمون عنه إلى إشبيلية قام بدعوته ابن الرّميمي بمدينة المرية ثم طاعت له غرناطة ومالقة فضعف المأمون عن مصادمته لما كان قد أهمّه من أمر الموحدين بمراكش. فلما استقر المأمون بمراكش واشتغل فيها بما اشتغل، اتقد نار الفتنة بالأندلس واشتعل، وطاعت لابن هود أكثر بلادها ورؤسائها وأنجادها وخلعوا طاعة الموحدين عنها، وقتلوهم في كل بلد منه، وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 277 وما بعدها.

وأخفاه في ذلك الوقت عنهم".[1] هكذا كانت نهاية الموحدين في الأندلس على يد ابن هود وأمثاله من ثوار الأندلس من جهة وعلى يد النصارى من جهة أخرى.

وقد دفعت هذه الأحداث أغلب الموحدين إلى ترك الأندلس والهجرة إلى العدوة المغربية، بينما فضل البعض منهم الارتداد عن دينه والارتماء في أحضان النصارى كما فعل السيد عبد الله البيّاسي صاحب جيّان، والسيد أبو زيد صاحب بلنسية الذي لجأ إلى ملك أرغون. في حين لجأت مجموعة منهم إلى جزيرة ميورقة حيث آواها الوالي أبو يحيى التنملي وقرّبها، فكانت السبب في إثار الفتنة بين أهل الجزيرة وانقسام جبهتها الداخلية غداة العدوان النصراني عليها. هذا ما تقوله رواية ابن عميرة ويؤكده نص ابن المستوفي الذي يقول: "لما استولى ابن هود على الأندلس، خاف صاحب ميورقة أبو يحيى على ميورقة من أجنادها، وكانوا في الأندلس فقتل منهم خلقا وهرب من هرب إلى الجبال والحصون وخلت المدينة من كثير من أهلها، فنزل عليها البرشنوني (خايمي الأول) وحاصرها في شوال 626هـ"[2] .

ولما اشتد الخلاف بين طائفة الوالي وبين أجناد ميورقة الأندلسيين وخشي كل طرف على نفسه من غدر الطرف الآخر، اجتمع هؤلاء الأجناد إلى قائدهم، الذي بخل علينا ابن عميرة بذكر اسمه، وراحوا يحذرونه من الغوائل ويخوفونه أشد تخويف ويحرّضونه على التآمر ضد الوالي والتخلص منه. ورغم تردد القائد ورفض الفكرة في أول الأمر إلا أن الأجناد أقنعوه وأتوه على الأمر بدلائل فاستجاب لهم، واتفقوا على المؤامرة وعلى أن يكون قتل الوالي في صلاة التراويح أي في شهر رمضان 626هـ/ أوت 1229م.

(1) ابن عذاري المصدر السابق، ص 288.

(2) ابن المستوفي، نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل، ج1، ص: 430.

ولكن الوالي اكتشف خيوط المؤامرة فخشي القائد على نفسه وفرّ في عدد قليل من أصحابه إلى البادية مستجيرا، ولم يتمكن من الوصول إليها إذ أدركه قوم الوالي قريبا منها فقتلوه مع ذلك العدد القليل من أصحابه. ثم أمر أبو يحيى التنملي بالقبض على جماعة من أجناد ميورقة ممن اتهموا بالتآمر عليه فأودعوا السجن، ثم لم يلبثوا أن سلبت منهم الأموال وقطعت رؤوسهم.

وأثناء ذلك كانت أخبار العدو تزيد، فرأى الوالي أن يستطلع تلك الأخبار، فجهّز قطعة حربية وأرسلها للقيام بتلك المهمة، ولكن الرياح عصفت عليها ورمت بها إلى بنشكلَة إحدى ثغور شرق الأندلس، حيث وقعت في أيدي النصارى فأضرموا فيها النار. وفي أثرها أرسل الوالي قطعة ثانية، وخرجت تستوضح الأنباء حتى انتهت إلى وادي كونة قرب ثغر بنشكلَة فأسرت من النصارى تسعة رهط واقتادتهم إلى ميورقة فسئلوا عن استعدادات العدو فقالوا إنه قد تكامل للنهوض وإنّه على وشك الإبحار إلى الجزيرة. ثم عزز الوالي بقطعة ثالثة لاستجلاء الخبر، ولكن الريح رمت بها إلى جزيرة سردانية فأغارت في سهلها وأسرت خمسة من أهلها. ولما استنطقهم الوالي أخبره بعضهم أن أهل أرغون قد أجّلوا غزوهم لميورقة إلى فصل الربيع بدل الشتاء، فاستحسن هذه التوسعة وصدق هؤلاء الرهط، وأذن في الناس أن العدو غير قادم وسمح لأهل البادية الذين كان قد استدعاهم من قبل بالعودة إلى مواطنهم وترك المدينة. فكان ذلك غاية في القصور وسوء التدبير.

ولمّا خلا للوالي الجو، ورجع أهل البادية إلى منازلهم، واطمأن إلى ما أخبره به أسرى سردانية، عاد إلى تأجيج الأحقاد ضد أجناد ميورقة والانتقام منهم، فأمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبرائها فضرب أعناقهم وطرحهم بالعراء. وكان اثنان منهم ابني خالة وخالهما أبو حفص عمر ابن شيري الذي سيقود ذيول المقاومة الإسلامية في الجزيرة بعد سقوط

ميورقة. وأمام هذه التصرفات الحمقاء للوالي اضطر الكثير من وجوه المدينة وأعيانها إلى الفرار منها واللجوء إلى البادية والاجتماع بابن شيري خال القتيلين وإخباره بما نزل وتحريضه على طلب الثأر.

ولم يكتف أبو يحيى التنملي بتلك الأعمال الشنيعة التي ارتكبها في حق أجناد وأعيان ميورقة، في وقت كانت حاجة الجبهة الداخلية إلى التماسك والتلاحم شديدة وماسّة لمواجهة العدو، بل أصبح يوم الجمعة منتصف شوال 626هـ والناس من خوفه في أهوال، فأمر صاحب شرطته أن يأتيه بخمسين من أهل الوجاهة والنعمة، فانقض عليهم وأحضرهم بين يديه. وبينما هؤلاء سكارى من الذعر، وعيونهم شاخصة والنوادب عليهم قائمة، وهم ينتظرون لحظة فراق الدنيا بقطع رؤوسهم، وإذا بفارس على هيئته النذير دخل على الوالي، وأخبره بأن أساطيل الملك خايمي صاحب قطلونية وأرغون قد أقبلت، وأنه عدّ فوق الأربعين من القلوع.

وقبل أن ينتهي من كلامه إذا بفارس آخر أقبل من الجهة الأخرى لجزيرة ميورقة فأخبر الوالي بأن أسطول العدو قد ظهر، وأنه عدّ فوق السبعين شراعا، ولما صحّ عنده الأمر سمح لهؤلاء المحتجزين عنده بالصفح والعفو وأعلمهم بخبر العدو وأمرهم بالتجهز، وخرجوا إلى دورهم كأنما قد نشروا من قبورهم. وفي اليوم الموالي وهو يوم السبت جاء من أكد للوالي الخبر وأخبره أن أسطول العدو يتكون من مائة وخمسين قطعة حربية وأنه يقصد مرسى شنت بوصة (سانتا بونزا) الواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة ميورقة بحوالي عشرة أميال(ستة عشر كلم).

6. الصدام المسلح وفرض الحصار على مدينة ميورقة:

ولما أيقن الوالي أن العدو أصبح قاب قوسين أو أدنى من المدينة

أخرج جماعة من أهلها لسدّ الثغور القريبة منها، وأسند قيادتها لبعض قومه الذين انهمكوا في اللهو والمعاقرة وأهملوا شأن العدو، ولم يأخذ بمشورة الجماعة حين نصحتهم بالرباط في مرسى شنت بوصة وحمايتها تحسبا لنزول العدو فيه، وذهبوا إلى حدّ اتهامها بالخيانة. وفي صباح يوم الإثنين 18شوال 626هـ/ 10سبتمبر 1229م نزلت القوة الفرعية الصليبية في المرسى المذكور بقيادة نونيو سانشيز أمير روسيون وغيره، وقوامها حوالي خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل وكان يحمل رايتها البحّار القطلاني برناردو ريوديما. وتقدمت إليها القوة الإسلامية فوقع أول صدام مسلح بين الطرفين استمر طيلة ذلك اليوم، وأفضى إلى انهزام المسلمين وانسحابهم من المعركة في المساء. فكانت هذه الهزيمة أول البلايا، وفاتحة الرزايا، وعنوان الشر النازل، وابتداء المرض القاتل كما يقول المؤلف.

وفي الوقت الذي كانت فيه معركة شنت بوصة على أشدّها، كان الملك خايمي الأول يقود القوة الرئيسية إلى بورتوبي الواقعة إلى الجنوب الغربي من مدينة ميورقة بحوالي خمسة كيلومترات فنزل هناك في صباح يوم الثلاثاء 19 شوال أي بعد عودة فلول المسلمين المنهزمة في المعركة السالفة الذكر إلى مدينة ميورقة. ولما كانت التجربة الأولى في لقاء العدو قاسية، طلب أهل ميورقة من واليهم أن يتأنى قليلا، ولا يتسرع في خوض معركة أخرى قبل أن يعيد ترتيب الصفوف ويمحي آثار الهزيمة. ولكن الوالي ركب رأسه وتصلّب في مناجزة القوات الصليبية ومشى على غير نظام ولا ترتيب يقود قرابة ألفي فارس وأكثر من عشرين ألف راجل.

وقبل خوض المعركة الحاسمة أشار أهل الرأي على الوالي أبي يحيى التنملي بأن يبني أمر الحرب على رأس الجبلين الصغيرين المطلّين على

بورتوبي وهما مرج سرقسطة ومرج الملك[1]، أو العقبة كما يسميها ابن عميرة، ولكن الوالي رفض هذا الرأي وأصر على النزول. ونشبت المعركة بين الجانبين في السفوح الغربية لتلك العقبة(الجبلين الصغيرين)، ودارت رحاها بكل شراسة واستبسل فيها الطرفان، وكان أمير طرطوشة من كبار المتحمسين لهذه المعركة فاستظهر لها بالعدة والقوة وأنذر أنه سوف يموت في جزيرة ميورقة وأنها ستكون من نصيب الصليب، ولم يكن المسلمون أقل حماسة من أعدائهم حيث أبدوا شجاعة كبيرة في القتال.

وبينما الحرب على أشدّها وريح انتصار المسلمين فيها كادت أن تهبّ، إذا برجل من قوم الوالي جاء إليه وقال إن النصارى قد احتدم ثأرهم وإنهم يسعون للسيطرة على مرتفعات بورتوبي، التي كان الوالي قد رفض أن يبني عليها أمر الحرب حسب الخطة المعروضة عليه من قبل، وخوّفه من عاقبة احتلال العدو لتلك المرتفعات وما يترتب عنها من انقلاب ميزان الحرب لغير صالحهم، فراطن قومه أن يصعدوا إليها ويستتروا بها. ولما شرعوا في الصعود إليها والاعتصام بها ظن غالبية المسلمين أن الهزيمة قد حلّت بهم فولوا مدبرين وفرّ معظمهم إلى المدينة ولحقهم العدو، وتحول الانتصار إلى انكسار والإقدام إلى إدبار. ولم يكن ذلك مردّه إلى قلّة عدد وعدّة المسلمين ولكن بسبب سوء تدبير الوالي واستعجاله وتصدع جبهته الداخلية.

وارتحلت القوات الصليبية بعد معركة بورتوبي نحو مدينة ميورقة وشرعت في فرض الحصار عليها برًا وبحرا في أواخر شهر شوال، وأخذت في إنزال الآلات الحربية ونصبت حول أسوار المدينة الأبراج الخشبية التي

(1) ميجيل الكوبير، الإسلام في ميورقة، ص57.

أقيمت عليها المجانيق، وضربت الأخبية وأرست سفن أسطولها في البحر وجعلتها قبالتها، وقد أتمّت ذلك بسرعة فائقة. ثم أخذ الغزاة في دكّ أسوار المدينة وأبراجها بالمجانيق والقذائف المحرقة، وكانت القوات الإسلامية تتسلل إليهم بين الحين والآخر وتقاتلهم وتشتبك معهم دون وهن ولا يأس. ولما رأى هؤلاء الغزاة أن ضرب المجانيق لم يحقق الهدف المطلوب رغم ما أحدثه من أثر في أسوار المدينة، وأن عزائم المسلمين لم تفتر في المقاومة، لجأوا إلى حفر الخنادق شمال شرق المدينة وغربها للوصول إلى المياه الجوفية ومحاولة تدمير أسس الأسوار بغية الولوج إلى الميدان الرئيسي، ولكن المحاولة باءت بالفشل.

ولما رأى أهل البادية في الجزيرة ما حلّ بميورقة من حصار وخناق شديد فرضه عليها العدو الصليبي، أخذتهم الغيرة على مدينتهم ودفعتهم الحمية للدفاع عن الإسلام والمسلمين، فاستجمعوا عدّتهم وعددهم وتجهّزوا للقتال. وقبل الخروج للعدو أرسلوا إلى الوالي أبي يحيى التنملي أن يبعث إليهم رجلا يأتمرون بأوامره ويكونون طوعه، فندب لهم واحدا من قومه معروفا بالجبن ليس أهلا لقيادة الجيش وهو الذي كان قد أشار على الوالي في معركة بورتوبي بالصعود إلى المرتفعات فوقعت الهزيمة بسبب ذلك. وما أن رأى جموع الروم حتى هاج به الجبن والخور ففرّ لا يلوي على شيء وكان السبب في تفريق جموع أهل البادية الذين لم ييأسوا وأعادوا على الوالي رغبتهم تلك واقترحوا عليه أن يبعث إليهم أحد أبنائه. ولكن الوالي الذي اشتهر بسوء التدبير أصرّ على أن يرسل إليهم الرجل نفسه رغم تشاؤمهم به وكرههم له، فجرّ عليهم ذيل الويل بفراره مرّة أخرى أمام العدو الذي أحدث في أهل البادية مقتلة كبيرة وأمطر عليهم من البلاء سحبا غزيرة.

ولم تعدم جزيرة ميورقة وجود خونة باعوا شرفهم وارتموا في

أحضان العدو النصراني مرتدين عن دينهم مفارقين لأمتهم، ومن هؤلاء أحد عمّال الجزيرة وهو ابن عبّاد الذي أقبل على الملك خايمي عارضا عليه ما يريد من خدمة مقابل أن يؤمّره على الجزيرة. وقبل الملك العرض وأحسن وفادته وأحاطه بكل رعاية وتكريم، فخرج الخائن ابن العباد إلى البادية ينشر روح الهزيمة بين أهلها ويثبط عزائمهم، ونجح في إقناع الكثير منهم باعتناق النصرانية ومصالحة الروم، كما ظل يزود المعسكر المسيحي بالمؤن والأغذية طوال فترة الحصار. فجاءت هذه الخيانة ضربة قاصمة لوالي ميورقة ومن معه داخل الأسوار المحاصرة، ونفسا قويا للملك خايمي الذي أتاحت له الفرصة في إطالة عمر الحصار بما ضمنه له الخائن ابن عباد من ميرة لمعسكره وعلف لحيواناته.

ولما ضاقت الأحوال بأهل المدينة واشتدت عليهم وطأة الحصار، أداروا الرأي بينهم ورأوا أن يبعثوا إلى أهل البادية وقائدهم الخائن ابن عبّاد جماعة منهم تعظهم وتنشدهم الله والإسلام، وتحثهم على ترك التعاون مع النصارى وموالاتهم. وخرجت الجماعة يرأسها خطيب المدينة فلقيت في طريقها من أيأسها مما فيه طمعت وهمّت بالانصراف، ثم بدا لها أن تقيم الحجة على هؤلاء الخونة فواصلت طريقها حتى انتهت إليهم. وكان أهل البادية قد صالحوا الروم على شروطها وأرادوا توثيق هذا العقد، وطلبوا من الجماعة التي جاءت تمنعهم ذلك أن تحضر معهم هذا الصلح ليكون عقده أوثق وأصح.

وحاول وفد المدينة إقناع أهل البادية بكل السبل للتخلي عن هذا الصلح لتعارضه مع الإسلام وما يجره على المسلمين من ويل ولكن دون جدوى، بل إن أعضاء الوفد سيقوا بالقوة إلى الملك خايمي الأول على يد أهل البادية الذين أخبروه بأن البلد في حكمهم. وبعد حبسهم وإذلالهم أمرهم

الملك بأن يفاوضوا والي ميورقة المحاصرة وأهلها على الاستسلام، ولكنهم فشلوا بعد عدّة محاولات بسبب إصرار الوالي على المقاومة ورفض الاستسلام. فاشتد غضب الملك خايمي على الخطيب وجماعته واتهمهم بالتواطؤ مع أهل المدينة فأعادهم إلى السجن ثم صاروا في حكم الرقّ.

وبعد فشل الخطيب وجماعته في إقناع أمير البليار بالاستسلام، أرسل إليه الملك خايمي عمّ والده الكونت نونة لمفاوضته على تسليم المدينة ولكن الأمير المسلم رفض الصفقة وقرر المقاومة وانقطعت المفاوضات وعاد القتال من جديد بين الطرفين بشكل أعنف، حيث أضرم النصارى النار تحت سور المدينة فسقط ومعه ثلاثة من الأبراج الغربية في الثالث عشر من شهر محرّم سنة 627هـ. وتمكنت القوات الإسلامية من مجابهتهم بقوة وردّتهم على أعقابهم وأعادت بناء ما تهدم ولكن إلى حين، لأن الحصار اشتدّ وطالت أيامه وكثف العدو هجماته على المدينة، وباءت الخطط المعروضة على الوالي في الدفاع بالفشل بسبب بخله وسوء تدبيره، وازدادت الأوضاع سوءا وأضحت ميورقة قاب قوسين أو أدنى من السقوط.

7. سقوط مدينة ميورقة:

ولما رأى أبو حفص عمر بن شيري، الذي كان الوالي قد قتل ابني أختيه ضمن كبراء المدينة الأربعة، أن أمر العدو قد استشرى وأن خناقه على المدينة قد اشتد أكثر، خرج إلى البادية يستنجد أهلها ويسعى في إفساد ما كان بينهم وبين النصارى من وصلة وهدنة، فجمعهم ووعظهم وأيقظ فيهم الغيرة على الإسلام والمسلمين وألهب حماسهم فأجابوه لما دعاهم وخرقوا الهدنة مع العدو وقتلوا منه من كان بين أظهرهم.

وفي يوم الجمعة 11صفر سنة 627هـ/28ديسمبر 1229م اجتمع

النصارى بقيادة ملكهم خايمي الأول وقرروا اقتحام مدينة ميورقة لأن ظروف الحصار لم تعد في صالحهم، فقد توجّسوا خيفة من أهل البادية الذين نقضوا الصلح معهم، وازدادت الأحوال الجوية في فصل الشتاء سوءاً حيث اشتد البرد وهاج البحر، ولم يأمنوا ردّ فعل قوي من طرف أهل الجزيرة المحاصرين الذين كان بإمكانهم استغلال الظروف المذكورة لصالحهم وفك الحصار المضروب عليهم.

وفي صباح اليوم الموالي أمر الملك خايمي بالهجوم العام والشامل على المدينة التي تمّ اقتحامها من الثغرات المفتوحة في الأسوار، وانهالت عليها جموع العدو التي ألهب حماسها الأساقفة ورجال الدين، وكان يوما عصيبا على مسلمي ميورقة وأذكر بهوله هول يوم القيامة كما وصفه المؤلف. وتواصل القتال طوال يومي الأحد والإثنين 13و14 صفر 627هـ بكل شراسة وعنف وتكدّست أكوام من الجثث على معابر الثغرات وأزقة المدينة نتيجة للمقاومة العنيفة، وكان والي ميورقة يقود القتال بنفسه ويحث جنوده على الثبات، ولكن حدّة الهجوم الشديدة وخيانة المرتد ابن عبّاد الذي أطلع العدو على ثغرات المدينة وطرقها، لم تجد معها بسالة المدافعين، وسقطت المدينة بعد قرابة أربعة شهور من الحصار، حيث تسلّمها الملك خايمي يوم الثلاثاء 15 صفر 627هـ/1يناير 1230م، وأباحها لغزاته ينهبون ويقتلون. وقد بلغ عدد قتلى مسلمي مدينة ميورقة أربعة وعشرين ألفا وهي مجزرة رهيبة ارتكبها نصارى قطلونية وأراغون في حق هؤلاء بكل قسوة ووحشية.

ووقع أبو يحيى التنملي والي ميورقة وجزر البليار في قبضة العدو الذي سجنه وعذبه عذابا شديدا وعاش خمسة وأربعين يوما في النكال الشديد والهول المذيب للحديد، حيث طلب منه الكشف عن الكنوز والأموال التي كانت عنده، كما أحضروا أحد بنيه بين يديه وقتلوه تنكيلا

وإرغاما له. ولكنه صبر صبرا جميلا ولم يحصل منه العدو على ما أراد ومات تحت العذاب. وأما أهل ميورقة الذين نجوا من القتل فأغلبهم وقع في الأسر وبيع في سوق الهوان وفرّ بعضهم إلى جبال الجزيرة والتحقوا بابن شيري. وأترك القارئ الكريم يطّلع بنفسه وبأسلوب المؤلف البليغ المؤثر على تلك المشاهد المفجعة والجرائم البشعة التي اقترفها النصارى في حق مسلمي ميورقة قتلا وأسرا وسبيا وقهرا.

ولم تتوقف المقاومة الإسلامية ضد الغزاة النصارى في الجزيرة بعد سقوط ميورقة العاصمة، بل تواصلت في الجبال بزعامة القائد أبي حفص عمر بن شيري الذي اتخذ من معقل بلانسة الجبلي في شمال الجزيرة إمارة صغيرة لمواجهة العدو. والتحق به الناجون من مذابح النصارى فبلغ تعداد قواته حوالي ستة عشر ألف مقاتل، وقام بتنظيم شؤون إمارته وعين الولاة والقادة والقضاة. وكان يشرف على شؤون القضاء في إمارة بلانسة الجبلية القاضي أبو علي عمر بن أحمد العمري الذي قال عنه ابن عبد الملك: "وهو من صرحاء ولد عمر بن الخطاب، كان حافظا اشتهر باستظهار الموطأ والذكر لمسائل الرأي وسرد أقوال الفقهاء، واستقضي بالجبل بعد انحياز الفلّ الميورقيين إليه إثر تغلب الروم على ميورقة وأعمالها، توفي بحصن بلانسة سنة 628هـ"[1] . كما انضوى إلى هذا الجبل الفقيه أبو العباس أحمد بن المواق الذي كان فقيها حافظا عاقدا للشروط ماهرا في المعرفة[2].

وتمكن ابن شيري من إلحاق خسائر فادحة في صفوف القوات الصليبية التي كان يباغتها في هجمات ليلية متلاحقة ويعود إلى معقله دون أن

---

(1) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج5، ص442.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص345.

تتعرض له تلك القوات في الشعاب الجبلية الوعرة. واستمرت المقاومة بعد سقوط مدينة ميورقة أكثر من سنة. ورغم النجاح الذي حققته إلا أنها كانت تفتقر إلى مزيد من الدعم وهو ما لم تتمكن من الحصول عليه سيما بعد قطع النصارى لخط الإمداد الذي كان يتزود عبره الثوار من جزيرة منورقة. وازدادت الأحوال سوءاً واشتد الجوع بهؤلاء المقاومين حتى دفعهم إلى أكل جثث قتلى النصارى حسب المؤلف، وثبت ابن شيري في أغلب الوقائع مع أصحابه إلى أن جاءته الشهادة في آخرها حيث استشهد في ضحى يوم الجمعة عاشر ربيع الثاني من سنة 628هـ/1231م، واختل الأمر بعد وفاته وتفرق أتباعه فمات أغلبهم، وأما الحصون الثلاثة الأخيرة فقد امتنع أصحابها مدة ثم صالحوا الروم على مغادرة الجزيرة في شهر شعبان من السنة نفسها، وباستخلاص هذه المعاقل الثلاثة خلصت الجزيرة لأهل التثليث.

وفي مطلع شهر شعبان 629هـ/ أوائل جويلية 1232م وبعد القضاء النهائي على كل معاقل وحصون المقاومة الإسلامية في جزيرة ميورقة، أصدر الملك خايمي الأول كتابا بتقسيم أراضي الجزيرة إلى إقطاعات له ولكبار قادة حملته الصليبية. ويتألف هذا الكتاب، المعروف بالمخطوط اللاتيني العربي حول تقسيم جزيرة ميورقة، من جزئين: أحدهما باللغة اللاتينية والآخر باللغة العربية. وقد نشر المؤرخ الميورقي الأستاذ خايمي بوسكيتس موليت النص اللاتيني في مجلة جمعية القديس رايموند لوليو للدراسات الأثرية في بالما سنة 1953م، ونشر النص العربي ضمن مجموعة من الدراسات بمناسبة تكريم الأستاذ ملياس فاليكروسا في برشلونة سنة 1954م، ثم جمع كلا النصين في كتاب واحد وكتب تعليقا عليهما بالإسبانية[1].

---

(1) صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مج4، ص218.

والنصان يكمل أحدهما الآخر ويتناول كلاهما تقسيم جزيرة ميورقة بعد انتزاعها من حكم المسلمين، ومن الأرجح أن يكون النص العربي قد كُتب قبل اللاتيني وأن الأخير ترجم عنه. وللنص العربي قيمة كبرى في توضيح عمارة ميورقة وقت استيلاء النصارى عليها وما كان فيها من مزارع وأرض وديار عامرة وغير ذلك، وكذلك الأعلام الجغرافية العربية الواردة في النص التي ما زال الكثير منها باق إلى اليوم. كما وردت في النص ألفاظ ميورقية خاصة مثل الرّحل والحوز والزوج وغيرها[1].

تلك هي رواية ابن عميرة المخزومي التي ساقها عن سقوط جزيرة ميورقة بأسلوب بياني مسجوع، وحاولت هذه الدراسة شرح وتحليل بعض جوانبها وتفسير الغامض منها قدر الإمكان، وهي رواية رجل عاصر تلك الكارثة واستقى أحداثها ممن عايشوا أطوارها ورووا تفاصيلها. لذلك فليست الرواية المسيحية بأكثر غنى وثراء من نص ابن عميرة في هذا الباب فضلا عما يشوبها من تحريف وتناقض وتعصب وتحيز مما يجعلها غير جديرة بالثقة والاعتماد.

ثامنا: المخطوط وطريقة التحقيق

ترددت طويلا قبل الإقدام على تحقيق هذا المخطوط، لأن التحقيق على أصل وحيد تجربة قاسية حافلة بالمصاعب. ولكني، نظرا لأهمية الكتاب وقيمته التاريخية والأدبية العظيمة وما يضمّه من معلومات لا نجدها في أصل آخر، مضيت أبحث عن أصول أخرى، فاتصلت بالقائمين على أقسام

(1) المرجع نفسه، ص219. وعن النص العربي كاملا انظر الملحق الثاني من كتاب جزر الأندلس المنسية، مرجع سابق، ص615 وما بعدها.

المخطوطات داخل الجزائر وخارجها في المشرق والمغرب راجيا البحث عن نسخ أخرى، فتفضلوا بالبحث والاستقصاء ولكن دون جدوى. وكانت الحصيلة من كل الجهد الذي بذل في هذا الشأن هو الظفر بنسخة مصورة عن النسخة الأصلية الموجودة بخزانة زاوية سيدي بلعمش بمدينة تندوف التي زودني بها مشكورا الأخ الفاضل أمانة الله صاحب الخزانة، فلم يبق إلا الاعتماد على هذا الأصل الوحيد لأن إخراج الكتاب إلى النور أجدى من الانتظار زمانا قد يطول.

ويعود اتصالي بالمخطوط إلى صائفة سنة 2001م عندما وقع بين يدي قرص مضغوط يحتوي على مجموعة من المخطوطات المصورة من خزانة زاوية سيدي بلعمش، كان مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي قد قام بتصويرها ووضعها في أقراص مضغوطة خلال جولته التي قام بها إلى دور وخزائن المخطوطات بالجزائر في السنة نفسها. ولما فتحت القرص واطلعت على عناوين الكتب لفت انتباهي مخطوط بعنوان تاريخ ميورقة لابن عميرة المخزومي فرأيته جديرا بالاهتمام وشرعت في قراءة محتواه. فتبين لي بعد القراءة الأولية أن العنوان لا يتناسب مع مجموع المخطوط الذي يتألف من 126 ورقة حسب البطاقة الفنية التي وضعها مفهرس مركز جمعة الماجد، لأن الذي يناسب العنوان هو 26 ورقة الأولى من المخطوط، أما المائة الأخرى فهي تعالج موضوعا آخر وهو رسائل ابن عميرة. ولعل السّهو الذي وقع فيه المفهرس يعود إلى خلط بعض الأوراق داخل المخطوط، ومنها الورقة الأخيرة من تاريخ ميورقة الواردة في نهايتها عبارة نسخ وقوبل من خط مؤلفه التي وضعت في آخر المخطوط، سيما وأن المجموع المخطوط قد نسخته يد واحدة.

وقد استعصت علي قراءة بعض الكلمات والعبارات غير الواضحة في

النص المصور على القرص المضغوط، فاتصلت بالأخ الفاضل أمانة الله صاحب الأصل المخطوط وطرحت عليه المشكلة، ولم يتردد في تزويدي بنسخة مصورة على الورق، فتمكنت بفضلها من قراءة كل ما استشكل علي لوضوحها. ولما استقر عندي أن المخطوط جدير بالتحقيق والنشر، عقدت العزم على القيام بهذه المهمة، فأعدت قراءته عدة مرات، ثم جاءت فرصة انعقاد الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات الذي نظمه مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي بجامعة قسنطينة في شهر نوفمبر 2004م، فقدّمت المخطوط ورقة علمية في هذا الملتقى. كما عرّفت به في مقالة نشرتها مجلّة التراث العربي التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق في عددها 98 جوان 2005م.

وفيما يلي جملة من النقاط المتعلقة بحالة النسخة الوحيدة من المخطوط المعتمدة في التحقيق:

1. إن المخطوط خال من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ واكتفت اليد المجهولة التي خطّته بالإشارة في نهايته إلى أنه نسخ وقوبل من خط مؤلفه.
2. ورد عنوان المخطوط واسم مؤلفه الكامل على وجه الورقة الأولى وظهرها.
3. يقع المخطوط في 26 ورقة بوجهين (52 صفحة).
4. مقاسه 24 سم طولا و18 سم عرضا وهو غير مرقم. وعدد الأسطر في كل صفحة 23 سطرا.
5. والخط مغربي واضح ولون الحبر أسود.

6. المخطوط خال من أي بياض أو بتر أو خرم وحالته متوسطة.

7. في الحالات التي كان الناسخ ينسى كتابة كلمة أو عبارة في المتن أو يخطئ في كتابتها، يستدرك ذلك بكتابتها على الهامش ويضع فوقها كلمة "صح".

8. لغة الناسخ سليمة لانعدام الأخطاء الإملائية والنحوية بالمخطوط.

9. انعدام التعقيبات والتعليقات في هوامش المخطوط باستثناء الورقة الأولى التي كتبت عليها بخط مغاير الفقرة التالية: "الحمد لله وحده، صلى الله على سيدنا محمد، استودع الكاتب هذه الشهادة، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، عليها نحيا وعليها نموت وعليها نبعث إن شاء الله. محمد الأمين بن محمد المختار بن بلعمش كان الله له وليا ونصيرا آمين والحمد لله رب العالمين".

ومحمد الأمين هذا كان عالما جليلا كبيرا القدر كما يصفه المختار السوسي في كتابه المعسول، له رسائل في الحض على صون النساء، مات في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وهو من آل بلعمش. والده هو محمد المختار الذي يصفه نفس المؤلف بأنه كان عالما جليلا يدوي صيته في جهات غرب الصحراء الكبرى، وأنه فريد في العلوم وفي القراءات. وهو الذي أشار على أخواله من قبيلة تاجاكانت المعروفة ببناء مدينة تندوف في سنة 1270هـ/1853م، فكان أول ما بني فيها المسجد الأعظم ثم شرعوا في بناء الدّور. توفي سنة 1285هـ/1868م.

وبعد اقتناعي بفائدة تحقيق هذا المخطوط وعزمي على ذلك رغم عدم حصولي على نسخة ثانية، لأنه عزّ علي نص مخطوط كهذا على جانب

كبير من الأهمية يظل حبيس خزانة الزاوية، وبعد قراءته عشرات المرات مستفيدا ومحققا ومراجعا ومقارنا ومصححا وحدي ومع غيري خرجت بما يلي:

1- قسمت المتن إلى فقرات يقتضيها المعنى وسياق الكلام.

2- نبهت على الانتقال من صفحة إلى أخرى في أصل المخطوط وذلك بإثبات رقم الصفحة بين خطين مائلين هكذا (//).

3- كل العناوين الواردة في المخطوط من وضع المؤلف، وقد جاءت مسجوعة على الطريقة نفسها التي كتب بها النص، واحتفظت بها كلها ولم أضف إليها أي عنوان.

4- جميع الهوامش من عملنا. وقد عرفت فيها بجميع أسماء الأعلام والأماكن الواردة في المخطوط.

5- حاولت شرح الكلمات الصعبة والغامضة في النص والتعريف بها ما أمكنني ذلك معتمدا على لسان العرب والقاموس المحيط، كما استخرجت الصور البيانية والمحسنات البديعية، وهو ما تفرضه خصوصية الكتاب الذي دوّن أحداث التاريخ بأسلوب أدبي رفيع، تقوم خصائصه على السجع بألوانه، والجناس بمختلف أشكاله، وضروب المقابلة والطباق، وقوة البيان، واستعمال التلميح والإشارة والتورية والاقتباس وغير ذلك من المحسنات البديعية.

6- وضعت للكتاب الفهارس الضرورية، كما زودته بقائمة ببيليوغرافية تتعلق بمصادر ومراجع التحقيق.

ولا يفوتني في ختام هذا التقديم أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأخ

الفاضل أمانة الله صاحب زاوية سيدي بلَعمش بتندوف ومالك أصل المخطوط الذي زودني بالنسخة المصورة المستعملة في هذا التحقيق.

وأدعو الله أن يعدّ جهدي هذا من صالح العمل وهو الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

د. محمد بن معمر

جامعة وهران

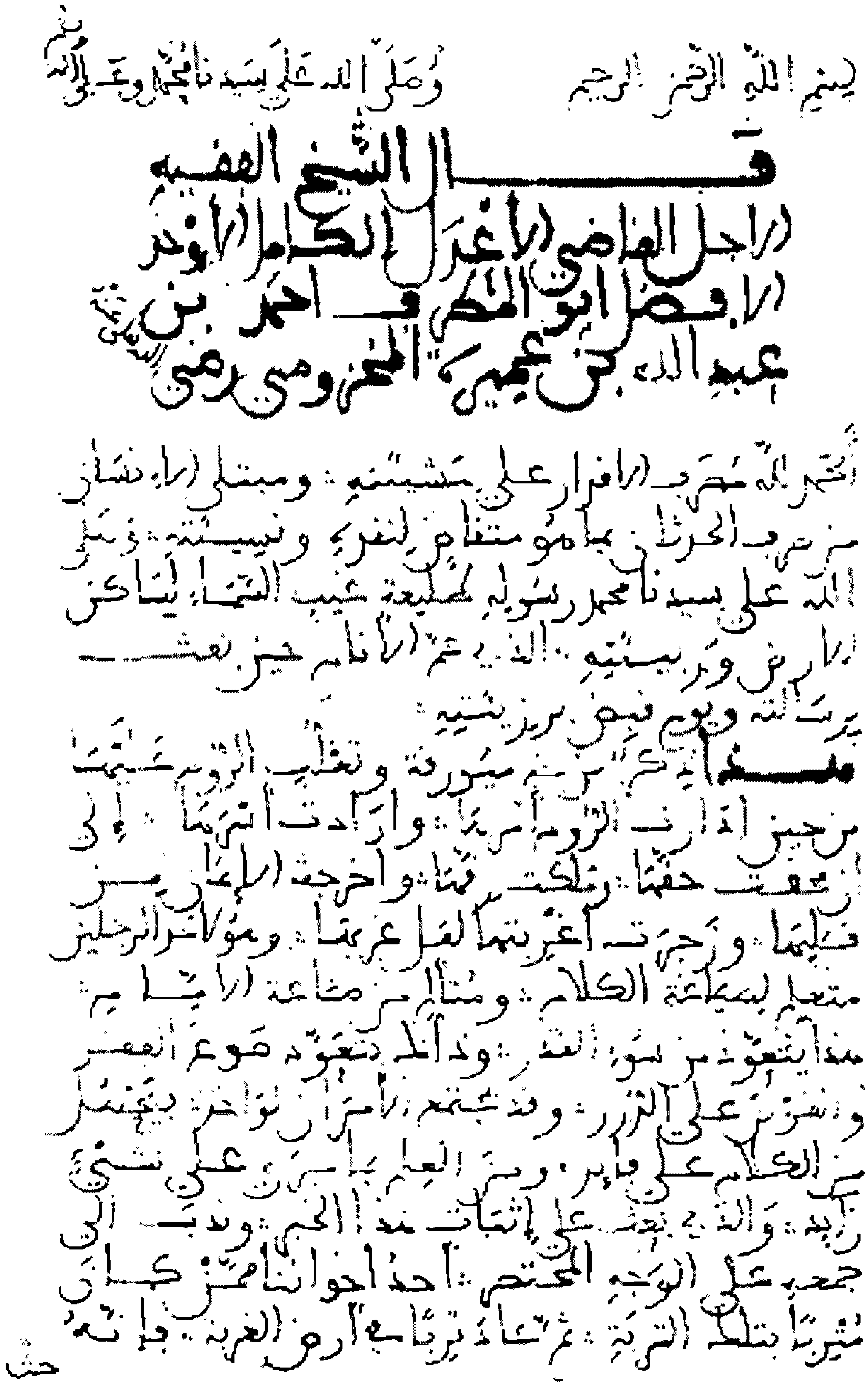

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

قال الشيخ الفقيه
الأجل القاضي الأعدل الكامل الأوحد
الأفضل أبو المطرف أحمد بن
عبد الله بن عميرة المخزومي رضي الله عنه

الحمد لله مصرف الأقدار على مشيئته ومبتلي الإنسان
من صروف الحدثان بما هو متقاض لصبره ونسيئته وصلى
الله على سيدنا محمد رسوله لخليقة غيب السماء وساكن
الأرض وبريته الذي عم الأنام حين بعثه

الصفحة الأولى من المخطوط

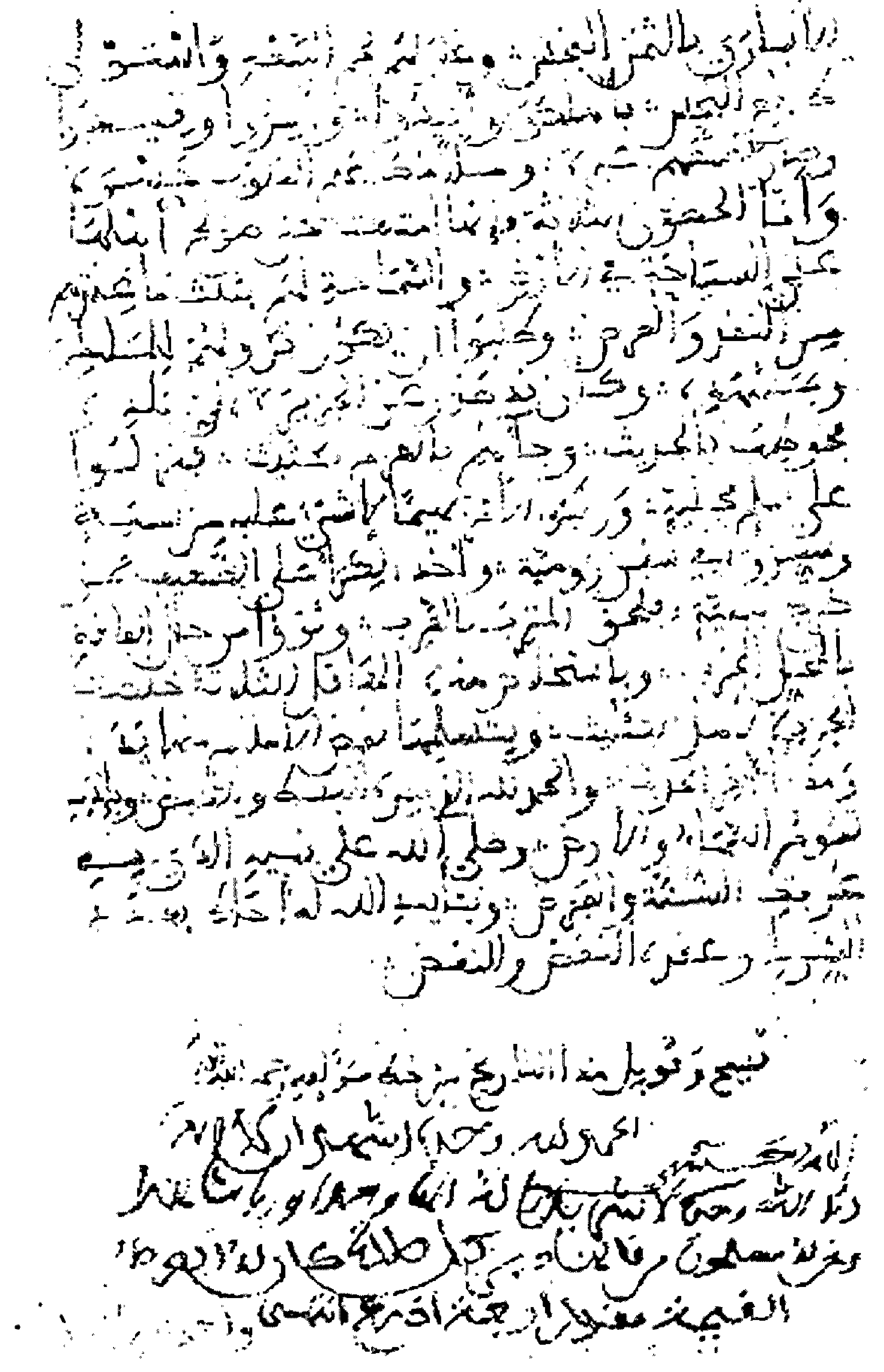

الصفحة الأخيرة من المخطوط

تاريـخ ميورقة

مقدمة المؤلف

/2/بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم. قال الشيخ الفقيه الأجل، القاضي الأعدل، الكامل الأوحد الأفضل، أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي رضي الله عنه.

الحمد لله مصرف الأقدار على مشيئته، ومبتلي الإنسان من صرف الحدثان بما هو متقاض لنقده ونسيئته، وصلّى الله على سيدنا محمد ورسوله طليعة غيب السماء لساكن الأرض وربيئته[1]، الذي عمّ الأنام حين بعث برسالته ويوم قبض برزيئته[2].

هذا ذكر من خبر ميورقة وتغلّب الرّوم عليها، من حين أدارت الرّوم أمرها، وأرادت[3] أسرها، إلى أن محقت حقها، وملكت رِقّهَا، وأخرجت الإيمان من قلبها، وزجرت أغربتها لفل غربها. وهو لأحد الرّجلين متعلم لصياغة الكلام، ومتألّم[4] من صناعة الأيام، هذا يتعوذ من سوء القدر، وذاك

---

(1) الربيئة، والجمع الربايا، وهو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدوّ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه. وفي الحديث: مثلي ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله، أي يحفظهم من عدوهم. لسان العرب، ج1، ص82.

(2) الرزيئة والمرزئة: المصيبة، والجمع أرزاء ورزايا. وقد رزأته رزيئة أي أصابته مصيبة. وقد أصابه رزء عظيم. والرّزء: المصيبة بفقد الأعزّة، وهو من الانتقاص. وقوم مرزّؤون: يصيب الموت خيارهم. لسان العرب، ج2، ص86.

(3) جناس ناقص بين " أدارت وأرادت ".

(4) جناس ناقص بين " متعلّم ومتألّم ".

يتعود صوغ الفقر[1] والغوص على الدّرر، وقد يجتمع الأمران لواحد، فيحصل من الكلام على فائد، ومن العلم بما جرى على شيء زائد.

والذي بعث على إثبات هذا الخبر، وندب إلى جمعه على الوجه المختصر، أحد إخواننا ممّن كان متربا[2] بتلك التربة، ثم عاد تربا[3] في أرض الغربة[4]، فإنه/3/حثّ على عمله بجد، وأشار إلى أنّه عنده كنزل معد، فقلت قِرى حظ صاحبه منه قراءة، ومسرّة بالإرضاء هي بالذكرى لتلك الأرزاء مساءة، ثم انتدبت لرغبته انتداب المجيب، وأتيت بالأخبار عن ذلك الأمر الغريب، وأثبته في الزمن القريب، وعلى الله التوكل وبه أستعين، وفي كنف فضله ومورد جوده أرغب وأحدهما هو المنيع والآخر هو المعين[5].

---

(1) أي صياغة الشعر والكلام ووضعه وترتيبه، لأن الفقر مفردها فقرة وهو أجود بيت في القصيدة وسميت كذلك تشبيها لها بفقرة الظهر. لسان العرب، ج5، ص62.

(2) المترب: الغني إما على السلب، وإما على أن ماله مثل التراب. والتريب: كثرة المال. وأترب الرجل: استغنى وكثر ماله فصار كالتراب. لسان العرب، ج1، ص228.

(3) الترب: الفقير المحتاج. ترب تربا ومتربة: خسر وافتقر فلصق بالتراب. والمتربة: المسكنة والفاقة. ويقال للرجل إذا قلّ ماله: قد ترب أي افتقر. وفي حديث فاطمة بنت قيس: وأما معاوية فرجل ترب لا مال له، أي فقير. لسان العرب، ج1، ص228.

(4) طباق الإيجاب بين " المترب والترب ".

(5) جناس ناقص بين " المنيع والمعين " وقد تم بتغيير مواقع الحروف فأدّى إلى تغيير في المعنى.

ابتداء أمر الجزيرة بالأخبار عن أميرها

وتوليه لتدبيرها إلى وقت تدميرها

هو محمد بن علي بن موسى وكان في الدّولة المهدية[1] أحد أعيانها الكفاة، وأحمد من نهض بأعبائها من الولاة، إلى أن حُطّ عن رتبته، وجُوِزَ إلى الأندلس في نكبته، ثم استقل بعض الاستقلال، ووَلي بلنسية[2] وما إليها من الأعمال، وبعد ذلك بيسير تبادل هو ووالي ميورقة[3] محلي الولاية،

---

(1) يقصد بها الدولة الموحدية.

(2) من قواعد شرق الأندلس، اشتهرت بأجنتها الخضراء وثمارها الطيبة وهوائها الجميل. وفي ذلك يقول ابن سعيد المغربي: "مطيب الأندلس، ومطمح الأعين والأنفس، قد خصّها الله بأحسن مكان، وحفّها بالأنهار والجنان، فلا ترى إلا مياها تتفرع، ولا تسمع إلا أطيارا تسجع، ولا تستنشق إلا أزهارا تتفح، وما أجلت لحظا بها في شيء إلا قلت هذا أملح. وجوّها صقيل أبدا، لا ترى فيه ما يكدّر خاطر ولا بصرا، لأن الجنات والأنهار أحدقت بها، فلم يثر بأرجائها تراب من سير الأرجل وهبوب الرياح فيكدّر جوّها...". ومن أعمالها البديعة الرّصافة ومنية ابن أبي عامر وقرية المنصف وقرية بطرنة ومتيطة وأندة وغيرها. حاصرها الملك خايمي صاحب أراغون في شهر رمضان سنة 635هـ/ 1238م وشدّد عليها الخناق، فبعث أميرها أبو جميل زيّان سفيره ابن الأبار إلى الأمير الحفصي مستنجدا فألقى بين يديه قصيدته السينية الرائعة التي اشتهرت في التاريخ وقد جاء في مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهي طويلة تقع في سبعة وستين بيتا، وقد كان لها أبلغ الأثر في نفس الأمير أبي زكرياء الحفصي الذي بادر بتجهيز أسطول محمل بالمؤونة والسلاح وأرسله إلى الثغر المحاصر، ولكن المحاولة فشلت نظرا لإحكام السيطرة النصرانية على المدينة التي استسلمت في 17 صفر 636هـ بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص297. المقري، نفح الطيب، ج1، ص179. عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم 2، ص444.

(3) هو أبو عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص عمر ابن الخليفة عبد المؤمن بن علي، رابع الولاة الموحدين على ميورقة الذي نقله منها الخليفة الناصر إلى ولاية بلنسية للمرة الثانية سنة 605هـ أو 606هـ أو 607هـ حسب اختلاف الروايات المشار إليها في الهامش الموالي. وأقام واليا عليها =

وأحدهما كفؤ الآخر في الكفاية.

فعبر البحر إليها سنة ست وستمائة[1] (606هـ) وسار فيها بأحمد السير، وحماها ممّا كان يتحيّف غيرها من الغير، وسارت به ميورقة مثلا في العدل الواضح السنن، أملا لكل نائي الوطر[2] نابي الوطن[3]، وكان يجلس لعامة الناس عامة يومه[4]، ويأخذ الحق للضعيف من أقوى قومه، فأفعم قلب القلوب مودّة، وأقام على مدّ ظلال العدل/4/مدّة. إلى أن آثر عرض هذا الأدنى على ذلك الغرض، وعرض له ما يعرض للأبدان الصحيحة من المرض، فجمع منهوبا بالمآل، وصار منهوما[5] لا يشبع من المال، واقتنى ما بداخل البلد وخارجه من الرباع[6] والضياع[7]، وما علم أن ما كسب فأملك

=

حتى سنة 610هـ، ثم نقله الخليفة المستنصر الموحدي إلى ولاية إشبيلية فمات بها. وقد ألف برسمه أبو عبد الله محمد ابن المناصف كتاب الأنجاد في أبواب الجهاد. وكان له ولد اسمه أبو زيد عبد الرحمن تولى هو أيضا ولاية بلنسية ما بين سنتي 620-626هـ، واستعان بالنصارى لاستعادتها من زيان بن مردنيش. ابن سعيد، اختصار القدح، ص42. ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص 256. ابن خلدون، العبر، مج6، ص 292 وص295.

(1) يخالف هنا ابن عميرة رواية ابن خلدون القائلة بأن تاريخ تبادل ولايتي ميورقة وبلنسية بين أبي عبد الله بن أبي حفص وأبي يحيى بن أبي الحسن، كان سنة 605هـ ورواية ابن عذاري القائلة بتاريخ سنة 607هـ. ابن خلدون، العبر، مج6، ص295. ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص 256.

(2) نائي الوطر: النأي هو البعد والمفارقة، والوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها همة، فإذا بلغها البالغ قيل: قضى وطره وأربه. لسان العرب، ج5، ص285، وج15، ص 300.

(3) نابي الوطن: النابئ هو الرجل إذا جاء من بلد إلى أخرى. والفعل هو نبأ بمعنى طرأ ونشط إذا خرج من أرض إلى أخرى. لسان العرب، ج1، ص163. وهنا جناس ناقص بين " الوطر والوطن ".

(4) جناس تام بين عامة وعامة، فالأولى تدل على الناس البسطاء أما الثانية فتفيد معظم الوقت.

(5) جناس ناقص بين " منهوبا ومنهوما ".

(6) الرباع: جمع ربع وهو المنزل ودار الإقامة. لسان العرب، ج8، ص102.

(7) جناس ناقص بين " الرباع والضياع ".

من يده له يد الضياع. ثم خُلع قومه من الأندلس فكان خبرهم بميورقة بدأة الشر الذي باض وفرّخ[1]، وماؤه رشح وبلاؤه رسخ، حسبما يفرغ من بيانه، ويستوفى إن شاء الله تعالى في مكانه.

(1) استعارة مكنية حذف المشبه به وترك أحد لوازمه ليدل عليه وهو باض وفرّخ فالذي يبيض ويفرّخ هو الطائر.

وصف ما جرى من الجزيرة التي هاجت الرّوم لغزو الجزيرة

احتاج هذا الوالي إلى الخشب المجلوب من يابسة[1] فأنفذ عنه طريدة بحرية[2]، وعمّر صحبتها قطعة حربية، فخرجت على مرأى من تجار للنصارى كانوا هنالك في قارب، ورُبّ مسالم تحت أثوابه ضغن محارب[3]، فطاروا إلى طرطوشة[4] بالخبر، ووعدوا ظفر الكفر إن نشب فيها بالظفر، فجهز

---

(1) ثالثة جزر البليار من حيث المساحة التي تبلغ 541 كلم مربع، طولها 40 كلم وعرضها 21 كلم، تقع إلى الجنوب الغربي من جزيرة ميورقة وتبعد عنها بحوالي 80 كلم وعن ساحل شرق الأندلس بحوالي 96 كلم. وقد أجمعت المصادر الإسلامية على أهمية هذه الجزيرة وشهرة منتجاتها كالفواكه والملح والأخشاب، وكان لأخشاب الصنوبر شهرة واسعة لأهميتها القصوى في بناء السفن. وفي ذلك يقول الزهري: "وهي جزيرة كثيرة الثمار والزرع، ومنها يجلب الزبيب واللّوز والتين إلى ميورقة، ويجلب الملح والخشب إلى بلاد إفريقية...". ويضيف صاحب الروض المعطار قائلا: "يابسة جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعناب، أرضها تنبت الصنوبر الجيّد العود لإنشاء السفن وعدد المراكب وبها ملاحة لا ينفذ ملحها". وقد أسهمت يابسة إلى جانب جزر البليار الأخرى بدور كبير في تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط الغربي. استولت عليها قوات خايمي الأول في سنة 633هـ. الزهري، كتاب الجغرافية، ص128. الحميري، الروض المعطار، ص616. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 424.

(2) الطريدة: مركب صغير سريع يشبه البرميل الهائل، وهي مفتوحة المواخر بأبواب تفتح وتغلق، وتستعمل غالبا في حمل الخيول للحرب، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا. وقد ورد ذكرها في القصيدة التي مدح بها ابن أبي حجلة السلطان المريني:

أبا فارس عمّر طرائدك التي ... يبيت بها الشيطان وهو طريد

محمد ياسين الحموي، تاريخ الأسطول العربي، ص33. المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 111.

(3) طباق الإيجاب بين " مسالم ومحارب ".

(4) تقع طرطوشة قرب مصب نهر الإبره في البحر المتوسط على مسافة تبلغ حوالي 200 كلم إلى الجنوب الشرقي من سرقسطة. جاء عنها في معجم البلدان أنها "مدينة بالأندلس شرقي بلنسية قريبة من البحر متقنة العمارة، لها ولاية واسعة وبلاد كثيرة، تحلّها التجار وتسافر منها إلى سائر

المثلثة[1] لها ثلاثا من القطع صغارا، وقرنوا بها واحدا من الكبار استظهارا، فخرجت لذلك المقصد، وجاءت حتى قعدت من طريق الإلفين بالمرصد، فانفصلا بحاجتهما من يابسة، وقصدوا ميورقة البائسة، ومرّا بالعدو الكامن، ولا علم عند رجالهما من الأمر الكائن[2]، فخرجت عليهم القطع الأربع دفعة، وفاتها غراب[3] المسلمين سرعة، فطردت/5/الطريدة حتى اقتنصتها، وخلصت إليها واستخلصتها.

وجاء الغراب ميورقة خزيان بإسلام الحليلة، ليهفان على منعها بالقوة أو الحيلة، فعظم على الوالي ما حدث، وحدّث نفسه بغزو الروم وليته ما حدّث، ووجّه إلى ملكهم وهو جاقمه بن بطر بن أدفونش[4] يطلبه بردّ

=

الأمصار. واستولى عليها الإفرنج في سنة 543هـ. ينسب إليها أحمد بن سعيد الغفاري (ت 322هـ) وأبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الفقيه المالكي الطائر الذكر (ت 520هـ)". الحموي، معجم البلدان، ج4، ص30.

(1) يريد النصارى.

(2) جناس ناقص بين " الكامن والكائن ".

(3) يريد القطعة الحربية التي أنفذها الوالي صحبة الطريدة، وهو سفينة سوداء مقدمتها على شكل رأس الغراب، وجناحاها بيضاوان، وهي تسير بالقلع والمجاذيف، منها ما له 180 مجذافًا وأقل من ذلك، وتستخدم لحمل الغزاة، اشتهرت بالبأس الشديد وإنزال الرّعب في قلوب الأعداء. وجاء في قصيدة ابن أبي حجلة الآنفة الذكر:

وغربانه في البحر فيها جوارح كأنهم العقبان حين تصيد

المنوني محمد، المرجع السابق، ص110. النخيلي درويش. السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص37.

(4) هو الملك خايمي الأول ابن بيدرو الثاني صاحب مملكة قطلونية وآرغون. قتل والده بيدرو في حربه ضد الكونت سيمون دي مونفور سنة 610هـ/ 1213م، وبقي خايمي رهينة تحت رحمة الكونت المذكور. وتدخل البابا أنوسنت الثالث من أجل إطلاق سراحه في العام الموالي، ولكن عمه الطموح سانشو قام باعتقاله في حصن مونزون، واستولى على السلطة سنة

=

الطريدة، ويتوعده بالنكايات الشديدة، والاغترار بزمامه آخذ، وحكم الله ماض وقضاؤه نافذ.

ثم أطاع الطمع، وجهّز القطع، وأرسل منها العاديات سبحا، لا العاديات ضبحا[1]، وحاول عين الخسارة وهو يظنها ربحا[2]، وهناك حال عن سننه المعروف، وتعرض لهيج الحروب وهو لا يحسن من علمها تهجي الحروف[3]. فجاءته قِطَعُهُ بأجفان رومية، وما صاب سهمها تلك الصّائفة عن رمية، وممّن حصّلته في قبضة الإسار، نصراني مشهور بالثروة واليسار، فاحتفظ به الوالي عند حفيظ، وطلبه بمال غليظ، ثم نزل معه إلى عشرة آلاف. وفسح له أن يبعث عنها من يأتي بها من غير إخلاف، فبعث إلى أهله في الظاهر أن يؤدّوا ويدفعوا، ولحن[4] لهم أن يردّوا ويمنعوا، ففهموا ما أراد

=

614هـ/ 1217م. وما أن تخلص خايمي الأول من عمه سانشو بعد جهود مضنية، حتى برز عمه الثاني فرناندو إلى الميدان، واستولى على السلطة، وظلت مملكة قطلونية وأرغون تعاني من الحرب الأهلية حتى عام 624هـ/ 1227م، حيث تمكن الملك خايمي الأول من توطيد دعائم حكمه في مملكة قطلونية وأرغون بعد استسلام عمه فرناندو وقواته، وأخذ يتطلع منذ ذلك الحين إلى الاستيلاء على جزر البليار. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج2، ص165-174.

(1) إشارة إلى قوله تعالى وهو يقسم بالخيل إذا أجريت في سبيله: "والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا". سورة العاديات، من الآية الأولى إلى الخامسة.

(2) طباق الإيجاب بين " الخسارة والرّبح ".

(3) جناس ناقص بين " الحروب والحروف ".

(4) لَحَنَ له يلحن لحنا: قال له قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره لأنه يميله بالتورية عن الواضح المفهوم. ولَحِن الرجل فهو لَحِنٌ إذا فهم وفطن لما لا يفطن له غيره. قال الشاعر:

وأدّت إليّ القـــول عـــنهنّ زولـــة ... تلاحـــن أو ترنـــو لقـــول الملاحـــن

=

فأيأسوه، وأنسوا لقوله فأظهروا أنهم نسوه.

=

واللّحْنُ: التعريض والإيماء. ومنه قول النبي وقد بعث قوما ليخبروه خبر قريش: "الحنوا لي لحنا"، وهو ما روي أنه بعث رجلين إلى بعض الثغور عينا فقال لهما: "إذا انصرفتما فالحنا لي لحنا"، أي أشيرا إليّ ولا تفصحا وعرّضا بما رأيتما، أمرهما بذلك لأنهما ربّما أخبرا عن العدو ببأس وقوة، فأحبّ أن لا يقف عليه المسلمون. لسان العرب، ج13، ص 379.

واتصل بالوالي في أخريات ذي الحجة من سنة ثلاث وعشرين وستمائة (623هـ) أن مسطّحا من برجلونة[1] ظهر على يابسة/6/وقعد عليها مخيفا، وأقام حواليها مطيفا[2]، وأنّ مركبا من طرطوشة انضم إليه في ذلك المكان، وفيه من المال ما يخرج حصره عن الإمكان. فأغذ حركة زهوه، وأعدَّ قِطَع غزوه، وملأها بكماة الهياج[3]، وحماة سرح الأثباج[4]، وجعل أحد بنيه، ووسمه بالتسمية لهذا الوجه النبيه، فخرج حتى نزل بمرسى[5] يابسة ووجد فيه لأهل جنوة[6] مركبا كبيرا، فأنشأ فيه تدبيرا، وعزم أن يَغْمُرَه

---

(1) برشلونة قاعدة قطلونية، تحدها من الشمال الشرقي مقاطعة جيرندة ومن الغرب لاردة ومن الجنوب طركونة. والناظر إلى برشلونة اليوم يجدها مكونة من ثلاث مدن: الأولى برشلونة الأصلية وهي التي على سيف البحر، وبرشلونة المحدثة في القرون الوسطى وهي التي تتألف منها المدينة العظمى اليوم، وبرشلونة الحديثة التي أحدثت في هذا العصر واتصلت بالضواحي والقرى. وقد فتحها المسلمون في أواخر القرن الأول الهجري. وفي سنة 185هـ/ 801م قامت فتنة بين الأمير الأندلسي الحكم بن هشام (180-206هـ) وبين عمّيه، فاغتنم العدو النصراني الفرصة وقصد برشلونة فملكها، ولم تنجح القوات الإسلامية التي بعثها الحكم بقيادة حاجبه ابن مغيث في استرجاعها. وكان ضياع هذه القاعدة الهامّة بعد أن بقيت تسعين سنة في أيدي المسلمين. المقري، نفح الطيب، ج1، ص 339. شكيب أرسلان، الحلل السندسية، ج2، ص272.

(2) جناس ناقص بين " مخيفا ومطيفا ".

(3) الكماة جمع كمي وهو الشجاع المقدم الجريء المتكمّي في سلاحه أي المستور بالدّرع والبيضة. والهياج والهيجاء هي الحرب. لسان العرب، ج2، ص 395، وج15، ص 232.

(4) جمع ثبج وهو معظم الشيء ووسطه وأعلاه. لسان العرب، ج2، ص219.

(5) جاء في الروض المعطار أن بجزيرة يابسة عشرة مراسي وبها أنهار جارية. الحميري، الروض المعطار، ص 616.

(6) من الجمهوريات الإيطالية التي كانت تتمتع بقوة بحرية ونفوذ تجاري في حوض البحر المتوسط الغربي خلال العصر الوسيط. وعن مدينة جنوة يقول الحميري: مدينة في بلاد الروم على ساحل بحر الشام، وهي مدينة قديمة البناء حسنة الجهات، شاهقة البناء وافرة البشر كثيرة =

بالرجال، ويستظهر به في القتال.

فتمّ له ذلك في أقرب مدّة، وفرغ ممّا كان بقي عليه من إكمال عدد وعدّة، وسار في تعبئة سارة، ونهض في جَوَارٍ للمركب جارّة، حتى طلع على المركب والمسطح، وهما مرتبعان في ذلك الأبطح[1]، فدنا السّواد من السّواد[2]، وكان لما حضر من جياد الماء حُضر الجياد. وبرز المركب للمسطح فقابله وهو مصمم إليه، وقاتله وهو مشرف عليه، فظهر المسلمون عليه ظهورا بيّنا، وقدّروا الظفر به هنيّا هيّنا[3].

وكشفوا النصارى عن ظهر المسطح حتى أخلوه، ولم يشكوا في علو الأيدي إذا علوه. فجدّوا في حملتهم، ومالوا إلى جانب المركب بجملتهم، ولم تكن أحكمت أسباب جِرْيته، ولا أصلحت أداة توصيله إلى بغيته، فأحجم عن طلقه، وكاد يغرق بقلقه، وبعد لأي ما استقل، ووجد المسطّح فترة فنسل وانسل.

ولما علم أهل المركب أنّه قنص قد أفلت من مخالبهم[4]، وقبس أظلم في عين طالبهم،عطفوا على/7/مركب النصارى وريحه هابة، وظهره لا

=

المزارع والقرى والعمارات، وهي على قرب نهر صغير وأهلها تجار مياسير يسافرون برا وبحرا ويقتحمون سهلا ووعرا. ولهم أسطول ومعرفة بالخيل الحربية والآلات السلطانية، ولهم بين الروم عزة أنفس. الحميري، الروض المعطار، ص173.

(1) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى، وسمّي كذلك لأن الماء ينبطح فيه أي يذهب يمينا وشمالا. لسان العرب، ج2، ص413.

(2) السوّاد: يقال رأيت سواد القوم أي معظمهم. وسواد العسكر: ما يشتمل عليه من المضارب والآلات والدواب وغيرها. لسان العرب، ج3، ص225.

(3) جناس ناقص بين " هنيّا وهيّنا ".

(4) استعارة مكنية شبّه الكاتب فيها أهل المركب بالأسد أو كل ما له مخلب، لكن المشبه به ههنا جاء محذوفا، دلّ عليه أحد لوازمه وهو قوله " من مخالبهم ".

ترمحه من تلك القطع دابة[1]، فحين دنا منه يئس من الخلاص، وأيقن أنّه في يد الاقتناص. فطلعه المسلمون من كل جانب، واقتسموه بين قاتل وناهب، ثم رفعوا القتال، وجمعوا بين يدي الوالي المتمول والمال، وكان فيهم أربعة من جنوة، هم أشهر أهلها يسارا وثروة، فقتل من ساعته من ذكر من أهل السّعة، وكان مرباعه[2] مال هؤلاء الأربعة، فأودعه عند بطانته، وجعل أمناء على ما لم يدخل تحت خيانته. وعاد إلى ميورقة وهو يرى أنه غالب لملوك الزمن، بالغ بسيفه ويزنيّه[3] مالم يبلغه سيف ابن ذي يزن[4]، وغاب عنه أنّه أشأم من عاقر الناقة[5]، وأن طليعة عمله ستلحقها من الساقة ما ليس في الطاقة[6].

فإن الرّوم حين بلغهم الخبر قالوا خُطب كبار، وأمر ليس عليه قرار، وكيف نقابل رفع هذه الفتوق بالفتور[7]، أو ننام وليس بنائم ليل الموتور، وقد

---

(1) جناس ناقص بين " هابّة ودابة ".

(2) المرباع: ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم قبل إسلامه: " إنك لتأكل المرباع وهو لا يحل لك في دينك". لأنهم كانوا في الجاهلية إذا غزا بعضهم بعضا وغنموا، أخذ الرئيس ربع الغنيمة خالصا دون أصحابه. لسان العرب، ج8، ص101.

(3) نسبة إلى ذي يزن ملك من ملوك حمير، وأصله يزأن، والمراد هنا الرمح، ويقال رمح يزني وأزني وأزأني وأيزني. لسان العرب، ج13، ص193.

(4) هو أبو مرة سيف بن ذي يزن بن عافر بن أسلم بن زيد بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور الحميري من ملوك اليمن. ذهب إلى كسرى ملك الفرس يستنجزه في النصرة على ملك الحبشة فمات هناك. ابن خلدون، العبر، مج2، ص73.

(5) مثل عربي يضرب في الشؤم، ويقال أيضا: أشأم من أحمر عاد. وهو قدار بن سالف، ويقال له أيضا قدار بن قديرة نسبة على أمه. وهو الذي عقر ناقة نبي الله صالح عليه السلام، فأهلك الله بفعله قوم ثمود. الميداني، مجمع الأمثال، مج1، ص528.

(6) جناس ناقص بين " الساقة والطاقة ".

(7) جناس ناقص بين " الفتوق والفتور ".

كان لأميرها أبي إبراهيم إسحاق بن محمد[1] فينا أيام تشيب النواصي، وغارات تبلغ الأقاصي، حتى قطع عن البحر والساحل القاطع والقاطن، وأعاد مواطئ لخيله تلك المواطن. والآن بذلك الكيل تكال، ففيما التلكؤ وعلام الاتكال؟

واجتمعوا إلى ملكهم الذي سمّيناه[2] فقالوا قد خامر الأمر الفظيع[3]، وإن ضعنا فأنت هو المضيع، وكيف ترضى بخطة الخسف، أو تقنع لجبالهم وبحارهم/8/بدون النسف والنزف[4]، وإنما هي خطتان إمّا سلم نقبلها كرها، أو حرب[5] لا ندع فيها من وجوه النظر وجها، فإن اخترت الحرب ففينا العدة والعدد، ومنا مع المُدد البعوث والمَدَد[6]، ونحن نجهز بأموالنا جيشا يتلوه

---

(1) هو أبو إبراهيم إسحاق بن محمد بن علي بن غانية المسّوفي، حكم الجزائر الشرقية (جزر البليار) مدة ثلاثين سنة (550-580هـ/ 1155-1184م)، تمكن خلالها من بناء أسطول بحري قوي، ولجأ إليه الكثير من المرابطين بعد سقوط دولتهم على يد الموحدين. وقد وصل مسلمو جزر البليار في عهده ذروة قوتهم العسكرية وقمة جرأتهم، وحققوا انتصارات بحرية باهرة في حوض البحر المتوسط الغربي، وحصلوا على مغانم كثيرة. وفي ذلك يقول المراكشي صاحب المعجب: "وأقبل على الغزو، وصرف عنايته إليه، فلم يكن له هم غيره، فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم، يغنم ويسبي وينكي في العدو أشد نكاية، إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالا، فقوي بذلك أمره". وهذا ما تؤكده المدونات الفرنجية نفسها. المراكشي، المعجب، ص388. ابن خلدون، العبر، مج6، ص287. ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص239. ألبارو كمبانير، تخطيط تاريخي للحكم الإسلامي في جزر البليار، ص140 وما بعدها. عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص324 وما بعدها.

(2) يريد الملك خايمي الأول صاحب قطلونية وأراغون.

(3) كناية عمّا أصاب النصارى على أيدي المسلمين.

(4) النسف: القلع، وانتسفت الشيء: اقتلعته. والنزف: يقال نزفت ماء البئر أي نزحت وذهب ماؤها. وأنزف القوم إذا ذهب ماء بئرهم وانقطع. لسان العرب، ج9، ص325-326.

(5) طباق الإيجاب بين " السلم والحرب ".

(6) جناس ناقص بين " العدد والمدد ".

جيش، ولا ترضى أن يدوم لنا على الضيم عيش. وهذا النصراني المأخوذ بميورقة نأخذ من ماله جملة، ونجعل ذات أيدينا للانتصاف من أعادينا وصلة.

فأخذ عليهم بذلك العهود، وأشهد على مقالتهم الشهود[1]، وأنفذ إلى ميورقة كبيرا من النصارى، وطلب الوالي برد المركب والمال والأسارى، على أن يكف عن المسلمين، ويصالحهم عشر سنين، وإن أصرّ على اللجاجة[2]، وصار إلى الرّد في الحاجة، فإنه يغزوه لا محالة، ويصدّق بفعاله هذه المقالة. فوصل الرّسول ونزل، وأدّى عن صاحبه ما طلب وبذل، فاستعظم الوالي هذه الغرامة، وقال لا ولا كرامة[3]، وأعاد عليه الكلام فلم ينتفع بإعادة، وعاد إلى الاقتصار على الأسارى دون زيادة، والوالي قد استخف بالأحوال المخيفة، ومثل نفسه بصادق الحنيفية[4] مع كذاب حنيفة.

فلما علم الرّسول أن يده لا تسمح بما أرعت، وأذنه لا تقبل على ما وعت، أحال إلى الكدر كبوه، وأبلغه مقالة الملك وأنّه أجمع غزوه، فأبرق

---

(1) جناس ناقص بين " العهود والشهود ".

(2) لجّ في الأمر: تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه. وفي الحديث: إذا استلجّ أحدكم بيمينه فإنّه آثم له عند الله من الكفّارة. ومعناه أن يحلف على شيء ويرى أن غيره خير منه فيقيم على يمينه ولا يحنث. وقيل: هو أن يرى أنّه صادق فيها مصيب فيلجّ فيها ولا يكفرها. ويقال رجل لجوج ولججة مثل همزة، والأنثى لجوج، والملاجّة: التمادي في الخصومة. لسان العرب، ج2، ص 353.

(3) جناس ناقص بين " الغرامة والكرامة ".

(4) صادق الحنيفية: هو الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وكذاب حنيفة هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة الشهير بمسيلمة الكذاب لادعائه النبوة. وكان من أهل الردة الذين قاتلهم الخليفة أبو بكر حين وجه إليه خالد بن الوليد في اليمامة، وكان مقتله على يد وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب، وذلك في شهر ربيع الأول سنة 12هـ. ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص246. عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص: 59.

وأرعد[1]، وأحفظه ما به توعد، وقال أو بلغ من حداثة الخبيث، أن يحدّث نفسه/9/بهذا الحديث[2]، قل له للبلوغ سنّ لو كان يدركها، لكان يدع هذه الدّعوى ويتركها، ولو كان لنا أجفان تكفينا لركبنا إليه ثبج هذا البحر، ونزلنا من سرارة[3] أرضه بين السّحر والنحر.

ولم يعلم أن من الاعتزاز ما يهب هوانا[4]، وأنّ ربّ كلمة هاجت حربا عوانا[5]. فقام الرّسول وهو يقول قد زل لسانك وستزل قدمك، وستندم على ما فرط منك حيث لا يغني عنك قدمك، وما تغني أضغاث الأحلام[6]، إذا هاجت أضغاث الكلام، وخرج حتى ركب ظهر مطيته، وعاد بما انطوى عليه إلى طيّته[7].

---

(1) أبرق وأرعد: تهدد وأوعد. ومن الأمثال العربية: رعدا وبرقا والجهام جافر. وهو مثل يضرب لمن يتزيا بما ليس فيه. الميداني مجمع الأمثال، ج1، ص434.

(2) جناس ناقص بين " الخبيث والحديث ".

(3) والجمع سرائر وهي أوسط الأرض وأكرمها. ويقال: أرض سرّاء، أي طيبة. ويقال: سرّ بين السّرارة، وهو الخالص من كل شيء. لسان العرب، ج 4، ص 358.

(4) جناس ناقص بين " هوانا وعوانا ".

(5) والجمع العون. والعوان من الحيوان السنّ بين السنّين لا صغير ولا كبير. والعوان النّصف في سنّها من كل شيء. والعوان من النساء التي قد كان لها زوج، وقيل هي الثيب، والحرب العوان أي المتردّدة التي كان قبلها حرب. قال الشاعر:

حربا عوانا لقحت عن حول ... خطرت وكانت قبلها لم تخطر

وفي حديث الإمام علي كرم الله وجهه: كانت ضرباته مبتكرات لا عونا. أي وقعت مختلسة فأحوجت إلى المراجعة. لسان العرب، ج13، ص299.

(6) إشارة إلى قوله تعالى: " قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين". سورة يوسف، الآية رقم 44.

(7) الطيّة: وجمعها طيات، وهي الناحية، والوطن، والمنزل، والوجهة. لسان العرب، ج15، ص20.

حديث ملك الرّوم حين عاد إليه رسوله من مراده مخفقا وللخبر المثير لأحقاده محققا

ولما انصرف صاحب الرّسالة، وجاء على آخر المقالة، تملك الملك الغضب، وقال عند القراع يُعلم أيّنا النبع وأينا الغرب[1]. وتهيّأ للعبور، وأقام لتلك الأمور، واستنجز طائفة الشرك موعودها، وأشهد على نفسه عابد الكنائس ومعبودها، وكتب أهل النجدات على اختياره، وميّز الفارس والرّاجل باختباره، وأمر كلّ واحد من جنده أن يحضر من الدّروع الفارسية والفرسيّة بأحصنها، ومن/10/التّرسة الذهبية بأحسنها، ومن الجياد بأفرهها[2]، ومن الصّعاد[3] بأشهرها وأشرهها[4].

وكانت هذه فريضة رباعية غُني بحصرها، ولم ير السفر مظنة المشقة فيرخص في قصرها، واستكمل من عدة خيله التي انتقاها هذا الانتقاء، وكلف أشقياءها هذا الشقاء، ألفا وخمس مائة فارس، من كل محام ممارس، صابر

---

(1) النبع والينبوع وجمعه ينابيع، وهو العين والجدول الكثير الماء. والغرب بفتح الغين وسكون الراء وجمعه غروب هو الدلو الكبيرة التي تتخذ من جلد ثور. وإذا فتحت الرّاء فهو الماء السائل بين البئر والحوض. لسان العرب، ج1، ص642، وج8، ص345.

(2) فَرُهَ الشيء يفره فراهة وفراهية فهو فاره. يقال: دابّة فارهة أي نشيطة حادّة قوية. يقول عدي بن زيد في صفة فرس:

فصاف يفرّي جلّه عن سراته ... يبذّ الجياد فارها متتابعا

والفاره: الحاذق بالشيء. والفروهة والفراهة والفراهية: النشاط. لسان العرب، ج13، ص 521.

(3) جمع صعدة وهي الحربة العظيمة النصل، وتسمى الآلة أيضا والجمع آلّ وإلال، والفرق بينهما أن الآلة كلها حديد، والحربة بعضها خشب وبعضها حديد. ويراد بالآلة أيضا السلاح وجميع أداة الحرب. لسان العرب، ج3، ص255. ج11، ص24.

(4) جناس ناقص بين " أشهرها وأشرهها ".

على كل جهد، ناهد على أقبّ نهد[1]. فأما الرجالة فكانت عدّة أهل البلاد منهم عشرين ألف راجل، بين رامح ونابل، وحَامٍ حامل، وخاتر حاتل[2]، وأكمل لمراكب البحر من جوارحه[3]، وسراحين[4] مسارحه[5]، ستة عشر ألفا شرط عليهم حمل السلاح، وأن يحضروا معه حومة الكفاح.

وأمر أهل السّواحل بما شاء من الإنشاء، وفرّغهم لنتاج الحاملات لعسكر الماء، ووظف عليهم من أنواعها عددا، وضرب لهم في الوفاء بها أمدا، ووعد الجميع مرسى شلوط[6] وهو أقرب المراسي للجزيرة، وأخصّها

(1) النهد هو الفرس الضخم القوي والأنثى نهدة. ويقال: قبّ بطن الفرس فهو أقبّ، إذا لحقت خاصرتها بحالبيه. والخيل القبّ: الضوامر. لسان العرب، ج1، ص659، وج3، ص429.

(2) خاتر وختار وختّير وختور والمصدر هو الختر ويعني الغدر والخديعة، وقيل: هو أسوأ الغدر وأقبحه. والحاتل هو المثل من كل الشيء. لسان العرب، ج4، ص229، وج11، ص141.

(3) واحدتها: جارحة. وجرح الشيء واجترحه: كسبه. ويقال لإناث الخيل جوارح لأنها تكسب أربابها نتاجها. والجوارح من الطير والسّباع والكلاب: ذوات الصّيد لأنها تجرح لأهلها أي تكسب لهم. فالبازي جارحة، والكلب الضاري جارحة. وهو تشبيه من المؤلف لرجال البحرية النصارى بهذه الحيوانات. لسان العرب، ج2، ص 423.

(4) واحدها سرحان. وتجمع أيضا سراح على وزن ثمان، وسراحي بغير نون. والسرحان هو الذئب، والأنثى سرحانة. وقيل هو الأسد. ومن الأمثال العربية: سقط العشاء به على سرحان. وأصله أن رجلا خرج يلتمس العشاء فوقع على ذئب فأكله. لسان العرب، ج2، ص 481.

(5) واحدها المَسْرَحُ: وهو المرعى والموضع الذي تسرح إليه الماشية بالغداة للرّعي. وفي حديث أم زرع: له إبل قليلات المسارح. قيل: تصفه بكثرة الإطعام وسقي الألبان أي أن إبله على كثرتها لا تغيب عن الحي ولا تسرح في المراعي البعيدة خوفا من أن ينزل به ضيف وهي بعيدة عازبة. لسان العرب، ج2، ص 478.

(6) هو مرفأ مدينة سالو Salou الواقعة على ساحل إمارة قطلونية، ويبعد عن مدينة طركونة بحوالي 13 كيلومترا جنوبا. ومن هذا الثغر شرع النصارى في حشد قواتهم وأساطيلهم لغزو ميورقة ابتداء من شهر جمادى الأولى سنة 626هـ/ أفريل 1229م. شكيب أرسلان، الحلل السندسية، =

بالمصالح الكثيرة، فإنه مرسى ترفأ إليه السفن، وتدنو منه العمائر والمدن، برّه سهل فسيح، وبحره لا تهيجه ريح، فهو مجمع لشاة تسام، وتاجر يَستام[1]، ووارد يسافر، وصادر كافر جاء به الكافر.

=

ج2، ص270. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج2، ص171.

(1) مصدره السوم وهو عرض السلعة على البيع. ويقال ساومته سواما واستام علي، وتساومنا. لسان العرب، ج12، ص310.

وصف ما نشأ أثناء هذا التدبير من تهيب الرّوم لهذا المرام الكبير

/11/وبعد أن عزم النصارى على هذا الرأي، وشاهدوا ما لملكهم فيه من الجد والسعي، تعقبوا النظر، واستشعروا الحذر، وقالوا يجب أن نتبيّن أقوم الطرق، والشروع في العمل قبل تدبير الغاية من الخرق. وميورقة على ضم الرجال مبنية، وهي للبعيد والقريب أمنية، فهي بالمقاتلة طافحة[1]، ثم هي لكبش السماء مناطحة، وليمين الثريا مصافحة[2]، وركوب البحر إليها ركوب الغرر، وورودها مظنة لسوء الصدَر، والملك قد ركب رأسه، ووعد بها نفسه، وظنّ أنّها أخيذة لشرك[3] شركه، وأنّ بهذا المسلك تنتظم في سلكه.

فمن الرّأي أن نقوم الآن من مجلسنا، وننهض إليه بأنفسنا، ونأتي عنده في هذه العلة بقول شاف، ونبين عليه ما نتخوفه وهو عليه خاف. ولقد كانت ميورقة فوق ما هالهم، وأعظم مما راع علمُه جُهالهم، وأعزّ من أن تطرد سرحَها ذئابهم، أو يطير إلى شهدها ذبابهم[4]. ولكن قدر سبق، وقضاء من

---

(1) طفح الإناء والنهر يطفح طفحا وطفوحا: امتلأ وارتفع حتى يفيض. وطفحه طفحا وطفّحه تطفيحا وأطفحه: ملأه حتى ارتفع. ورأيته طافحا أي ممتلئا. والطافح: المتلئ المرتفع. ومنه قيل للسكران: طافح أي أن الشراب قد ملأه حتى ارتفع. لسان العرب، ج2، ص 530.

(2) كناية عن تخوف النصارى وتهيبهم من الحصانة الحربية والمناعة العسكرية لمدينة ميورقة، وتحسبهم لقوة أهلها واستعدادهم الكبير وحماسهم القوي في الدفاع عن مدينتهم ومواجهة العدو.

(3) الشَرَكُ: حبائل الصائد وكذلك ما ينصب للطير. واحدته شركة وجمعها شرك، وشَرَكُ الصائد: حبائله يرتبط فيها الصيد. لسان العرب، ج10، ص 450.

(4) الشَهْدُ والشُّهْدُ: العسل ما دام لم يعصر من شمعه. واحدته شهدة، ويكسّر على الشهاد. وقيل: الشهد العسل ما كان. والذباب الأسود الذي يكون في البيوت ويسقط في الإناء والطعام. والذباب أيضا: النحل. وفي حديث عمر رضي الله عنه: "كتب إلى عامله بالطائف في خلايا العسل وحمايتها، إن أدّى ما كان يؤدّيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عشور نحله فاحم له، فإنما هو ذباب غيث يأكله من شاء". يريد بالذباب النحل وأضافه إلى الغيث على =

الخالق فيمن خلق، ومدّة انقضت، ومشيئة نقضت عرى تلك المدينة الحصينة فانتقضت.

فجاؤوه بالقصة مخاطبين، ولهدي الهدون خاطبين، وقالوا غزوك ميورقة طمع في غير مطمع، وهذه بلاد الإسلام[1] منك بمرأى ومسمع، وأيها غزوت أمكنك فيه عمل، وتمّ لك منه أمل، فراجع نظرك، واقبل ممّن حضرك، وإن أنت على رأينا عزمت، وطلبت/12/عوضا من المال في الوجوه التي التزمت، اجتمع من ذلك لك المال الجم، وانصرفت به إلى غزو[2] ما هو أقرب وأهم. فزجرهم عن هذا الرأي، ونهاهم أن يتكلموا به أشدّ النهي، ومضى على عزمه في الاستعداد الذي لم يفتر عنه ساعة، ولا أخرج عن فرضيه العيني والجملي واحدا لا جماعة، حتى استوفى النخبة من الرّجال والأجناد والزعماء، وتمّ له ما أراد من جيش البرّ وعسكر الماء[3].

=

معنى أنّه يكون مع المطر حيث كان، ولأنه يعيش بأكل ما ينبته الغيث. لسان العرب، ج 1، ص382، وج 3، ص 243.

(1) كتبت في المتن المسلمين ثم صححها الناسخ في الهامش.

(2) نسي الناسخ كتابة هذه الكلمة في المتن فاستدركها في الهامش.

(3) طباق الإيجاب بين " البرّ والماء ".

سبب اختلاف الرّعية الجاني على البلد أعظم البلية

قد تقدّم أن أكثر مدّة هذا الوالي كانت صفوا بلاد كدر[1]، ونفعا دون ضرر، وأن أمور الرعية كانت عنده مرعية، وسياسته لم تزل سديدة مرضية، وما نقم منه إلاّ ازدياد من الدّنيا وحطامها، وانقياد من الأطماع في خطامها[2]. فلما تمّ على قومه من الخلع بالأندلس ما تمّ، وورد عليه من الخبر ما انزعج له واهتم، أوى إليه طُرداء منهم آواهم، ورقّ لبلواهم، فأشاروا عليه بالاحتراس، وحملوه على إساءة الظن بالناس، وانضم كل ذي حي إلى حيّه، ونقل صاحبه إلى مثل رأيه، وهم قوم لهم الأفئدة غلاظ[3]، وكل منهم على غير صنفه حنق مغتاظ، وقد وتروا[4] فهم يعضون الأنامل حسرة، ويرون/13/ التأثير في أهل الجزيرة ثؤرة. فدبّروا حصول هذه الغاية، ودبّوا بين الوالي وبينهم بالسعاية، وقرّروا عنده أنهم يبغضون القبائل، وينصبون لهم الحبائل[5]، وأنهم إن أهملوا أوقعوا بهم في الأموال والأنفس، وفعلوا بهم ما فعله أهل الأندلس.

---

(1) كناية عن الأوضاع الحسنة التي عرفها عهد الوالي أبي يحيى التنملّي.

(2) الخِطامُ وجمعه خُطُم، وهو الحبل الذي يقاد به البعير. والخطام: الزّمام. وخطمت البعير: زممته. والخطام كل حبل يعلّق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه. وقيل هو كلّ ما وُضع في أنف البعير ليقاد به. وخطام الدّلو: حبلها. وخطام القوس: وترها. وقد استعار المؤلف هنا الخطام في الأطماع كما استعارها بعض الرّجّاز أيضا في الحشرات حين قال:

يــا عجبــا لقــد رأيــت عجبــا ... حمــار قبّــان يســوق أرنبــا

عاقلهــا خاطمهــا أن تــذهبا ... فقلــت أردفنــي فقــال مرحبــا

لسان العرب، ج12، ص 186.

(3) كناية عن الخلاف بين الميورقيين.

(4) الوَتْرُ والوِتْرُ والتِّرة والوتيرة: الظّلم في الذحل (الثأر) وقيل هو الذّحل عامّة. وكل من أدركته بمكروه فقد وترته وترا وترة. والموتور: الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. وفي حديث محمد ابن مسلمة: أنا الموتور الثائر أي صاحب الوتر الطالب بالثأر. وقيل الوَتْرُ في الذّحل (الثأر)، والوِتر في العدد. لسان العرب، ج5، ص274.

(5) جناس ناقص بين " القبائل والحبائل ".

وما زالوا يظهرون عنده على ذلك شبها، ويغرونه بالقوم ظلما وسفها، وحرصا إلى أموالهم وشرَهًا[1]، حتى غلبوا صَبْرَه، وأوغروا صدره[2]، وقالوا له يوما إنّا وُتِرنا أعظم التِّرة، وأصبنا بالمصيبة الظاهرة غير المستترة، فأقر عيون أعياننا، وأعطنا أجناد الأندلس لنقتلهم بإخواننا، فقال ليس هذا من شأني، ولا آخذ البريء بذنب الجاني، وكيف أجري هذا المجرى، والله يقول "ولا تزر وازرة وزر أخرى"[3].

فأعادوا الرغبة حتى أيأسهم، وأظهر أنّه يكره مجلسهم، فقاموا عنه غير راضين، وما زالوا على الإيحاش له ماضين[4]، حتى احتجب عن الناس، وبالغ في الاحتراس، وأجلس أحد بنيه للأحكام وهو حدث معجب[5]، وعُذيق لا مرجَّب[6]، فساءت الأحوال، وابتدأ الزلزال[7]، ورحل الحاضر

---

(1) الشَّرَهُ: أسوأ الحرص، وهو غلبة الحرص. شره شَرَهًا فهو شره وشرهان. ورجل شره: شرهان النفس حريص. ويقال: شره فلان إلى الطعام يشره شرها إذا اشتدّ حرصه عليه. لسان العرب، ج13، ص506.

(2) كناية عن موصوف لأنّ المقصود هنا قلبه.

(3) سورة فاطر، الآية رقم: 18.

(4) جناس ناقص بين " راضين وماضين ".

(5) العجب: الزّهو. ورجل معجب: مزهو بما يكون منه حسنا أو قبيحا، فهو معجب برأيه وبنفسه. لسان العرب، ج1، ص582.

(6) العذيق تصغير عذق بالفتح، وهو كل غصن له شعب، ويطلق على النخلة عند أهل الحجاز. والمرجب من الترجيب وهو أن تدعم النخلة أو الشجرة وتعمد إذا خيف عليها أن تقع لطولها وكثرة حملها. أما بالنسبة للرجل فهو التعظيم. ومن ذلك قول الحباب بن المنذر: "...أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب". وهذا تصغير يراد به التعظيم والتكبير. وقد صارت كلمة الحباب مثلا يضرب للرجل الذي يستشفى برأيه وعقله. ولكن النص هنا يفيد التعريض والانتقاص من شأن هذا الابن. الميداني، مجمع الأمثال ج1، ص45. لسان العرب، ج1، ص412، وج10، ص238. ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص310.

(7) كناية عن بداية التصدّع الدّاخلي للميورقيين.

وحضرت الأوجال، ووصله شيطانان دلاّه على أمور، ودلّياه بغرور، وقالا إن الرعية قد استضافت أرض المخزن[1] إلى أرضها، وملكت كل البسائط بتملك بعضها، ونحن ننقصها من أطرافها[2]، وننقضها باستصرامها.

/14/فأخرج أحدهما لذلك من يومه، وضمّ إليه ظلوما من قومه، فدخلت على الناس أعظم داخلة، وحاروا بين أعمال من الجور متداخلة، ورفعت إليه هذه الظلامة فَنَجَه[3] الرّافع، ووجّه الوعيد الرّابع، فيئس الناس من الإشكاء، وكانت لهم أموال وضَنُّوا في خالصها على الشركاء.

(1) المخزن: مصطلح كان يطلقه المغاربة والأندلسيون على السلطة بمفهومها الواسع، وبعبارة جامعة كان المخزن سيفا وقلما. العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج2، ص 209.

(2) إشارة إلى قوله تعالى: "أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب". سورة الرعد، الآية 41.

(3) من النجه بالفتح: استقبالك الرجل بما يكره وردّك إياه عن حاجته بأقبح ردّ. وقيل هو الزجر والرّدع. لسان العرب، ج13، ص547.

حديث ما كان بالجزيرة من النظر

حين ورد بحركة الرّوم صحيح الخبر

وفي سنة ست وعشرين وستمائة(626هـ) اشتهر أمر هذه الغزوة، وتواترت الأنباء بها من الأندلس والعدوة[1]، فتحرّك الوالي للاستعداد، وأخذ أهل الجهات بأهبة الجهاد، فعرض وكتب، ودبّر ورتب، وميّز من قومه ومن فئة الأجناد نيفا على ألف فارس ومن فرسان الحضر والرعية مثلهم ومن الرجّالة ثمانية عشر ألفا، فكمل ذلك على الحال الحسنة، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة[2].

ثم استدعى أهل البوادي في شعبان[3]، ولم يرخص في التخلف لأحد كائن من كان، فنفروا إليه جميعا، وأمرهم بنقل الأطعمة إلى البلد فنقلوها سريعا. ثم ضبط المراسي بالرّجال، وأذكى العيون بمرابض السّواحل ومرابئ[4] الجبال، وقدّم على كل جزء قائدا وناظرا، وجعل كل ما يحتاج عند /15/حضور القتال حاضرا.

فانتظر الناس عدوّهم في تعبئة تسرّ الناظرين[5]، ورجوا نصر الله وهو

---

(1) يريد العدوة المغربية (بلاد المغرب) التي تقابلها العدوة الأندلسية.

(2) يريد سنة 626 هـ/ فبراير 1229 م.

(3) جويلية 1229 م.

(4) مفردها مربأ، أي أعالي الجبال. يقول غيلان الربعي:

قد أغتدي والطير فوق الأصواء ... مرتبئات فوق أعلى العلياء

لسان العرب، ج1، ص82.

(5) إشارة إلى قوله تعالى على لسان بني إسرائيل حين أمرهم بذبح بقرة: "قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين". سورة البقرة، الآية رقم 69.

خير الناصرين، وقومه يريشون ويبرُون[1]، ويستغشون ولا يبرّون[2]، ويغلون في الأمر أشد الغلو، ويغلّون يده عن الإعداد للعدو، ويقولون إنّ ما تسمع من حركته محال لا يكون، والخطب فيه مع ذلك يهون. إنما الدّاء أعداء منهم لك مكتنفون، وبدون دمك لا يكتفون، فبادر الرّمي قبل أن تغلب على نشابك، وتغدّ بِمَن يريد أن يتعشى بك[3].

وكانت الجماعة الأندلسية سخنة[4] أعينهم، ومضغة ألسنهم، فطلبوا من الوالي أن يحظر عليهم حمل السيوف، ويأمر بتقلّدها أهل القعود بداره والوقوف[5]، فخرج بذلك أمره، وظهر من خلل الرّماد جمره، وأوحشت تلك الحالة، وكثرت في ثقالى الفريقين القالة.

---

(1) يبرون النبال والسهام ويجعلون لها ريشا. ويقال: فلان لايريش ولا يبري أي لا يضر ولا ينفع. وفي حديث عمر قال لجرير بن عبد الله وقد جاء من الكوفة: أخبرني عن الناس، فقال: هم كسهام الجعبة منهم القائم الرائش، أي ذو الريش إشارة إلى كماله واستقامته. لسان العرب، ج6، ص309.

(2) يقال استغشى ثيابه وتغشى بها، بمعنى تغطى بها كي لا يرى ولا يسمع. ولا يبرون من البر بمعنى لا يصدقون. لسان العرب، ج4، ص52، وج15، ص127.

(3) ويقال: "تغدّ بالجدي قبل أن يتعشى بك". مثل عربي يضرب في أخذ الأمر بالحزم. الميداني مجمع الأمثال، ج1، ص190.

(4) سخنة العين: نقيض قرّتها، وقد سخنت عينه تسخن سخنا وسخنة وسخونا. وسخنت هي نقيض قرّت. لسان العرب، ج13، ص207.

(5) طباق الإيجاب بين " القعود والوقوف ".

ذكر الثورة التي كانت باكورة البطشة الكبيرة

وأوّل بلاء نزل من السَماء على الجزيرة

لما ارتاع هؤلاء الأجناد، وسعى في صلاحهم الفساد، وهالهم ما بينهم وبين طائفة الوالي من الخلاف، وتقرّر عندهم ما يُراد بهم من الإتلاف، اجتمعوا إلى قائدهم وكان سمح الخليقة، حسن الطريقة، وشكوا إليه /16/ما دهم ودهى، وقالوا إن أمد الصّبر قد انتهى، وإنما نحن مُصبَحون أو مُمَشّون[1]، وكيف تخفضنا السفلة ونحن الأعلون. فلم يقبل مقالهم أولا، وقال لعل فيما بلغ متأولا، وما زالوا يحذرونه الغوائل[2]، ويأتونه على الأمر بدلائل، حتى خاف على نفسه، وعاد يومه خلاف أمسه، وبدت البغضاء، وزال الإغضاء[3]، وتمّ القضاء.

وعزموا مع القائد أن يطوّقوا واليهم السّيف، ودبّروا أين وكيف، ثم اتبعوا رأي مشيرهم المُشيح[4]، وعزموا أن تكون الرّاحة منه في صلاة الترويح[5]. فلم يقض الله لحيلتهم أن تكون متوجهة، ولعلّه لم يرض أن تكون قتلته بالقتلة الفاروقية[6] متشبّهة، فإنهم لما عيّنوا اللّيلة والساعة، وقدّروا لِفَتكَةِ

---

(1) طباق الإيجاب بين " مصبّحون وممسّون ".

(2) واحدتها غائلة وهي الحقد الباطن. يقال فلان قليل الغائلة والمغالة أي الشرّ. والغوائل الدّواهي. والغيلة: الخديعة والاغتيال، وهي إيصال الشر والقتل إليه من حيث لا يعلم ولا يشعر. لسان العرب، ج 11، ص512.

(3) جناس ناقص بين " البغضاء والإغضاء ".

(4) المشيح: الحذر والجاد في الأمر. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص206.

(5) قيام رمضان وتؤدى بعد صلاة العشاء وقبل الوتر. والتراويح جمع ترويحة وهي المرة الواحدة من الراحة، سميت بذلك لاستراحة المصلين بعد كل أربع ركعات. السيد سابق، فقه السنة، ج 1، ص205. ويستفاد من النص أن محاولة اغتيال والي ميورقة أبي يحيى بن أبي الحسن كانت في شهر رمضان سنة 606هـ/ أوت 1229م.

(6) يريد مقتل الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي قتله أبو لؤلؤة النصراني

الجامع الجماعة، خرج منهم إلى أحد بطانة الوالي من سرى إليه بالسرّ، وكشر له عن ناب الشر[1]، فرفع إلى الوالي الخبر، وقال له الحذر الحذر، وانتشر الأمر فماج الناس، وهاج الوسواس، وقيل للقائد قد افتضحت القصة، وبصحة الأمر عليك لا تكون لك في الحياة حصّة، وليس أوان أناتك، فاحتل بالنجاة[2] لنجاتك.

فركب بحد فليل، في عدد قليل[3]، وخرج يعثر في ذيل الويل[4]، وأتبعه الوالي قطعة من الخيل، وكان قصد البادية مستجيرا ومستجيشا[5]، ولو بلغهم لكان غيمه مُرشًا وجناحه مريشا، لكن/17/أُدرك وبينه وبينهم فرسخ، وباشر عند حياته قاضي الحمام فقال يفسخ، وعُفّي ذلك الرُّبط، وعفّر ذلك الرّهط، وحطّت رؤوسهم عن الأجساد، ورفعت فوق الصّعاد، وطيف بها في الشوارع، وتطاول قوم الوالي لإنزال القوارع.

=

غلام المغيرة بن شعبة، وهو في صلاة الصبح ليلة الأربعاء 27 ذي الحجة سنة 23هـ. عن هذا الحادث انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص12.

(1) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلف الشر بالحيوان المفترس الذي يكشر عن أنيابه كالأسد والذئب والكلب وغيرهم.

(2) النجاة: السرعة في السير. وهو ينجو في السرعة نجاء، وهو ناج: سريع. ونجوت نجاء أي أسرعت وسبقت، وفي الحديث: إنما يأخذ الذئب القاصية والشاذة الناجية أي السريعة، وناقة ناجية ونجاة: سريعة. قال الأعشى:

تقطع الأمعز المكوكب وخدا   بنواج سريعة الإيغال

أي بقوائم سراع. واستنجى أي أسرع، وفي الحديث: إذا سافرتم في الجدب فاستنجوا أي أسرعوا. لسان العرب، ج15، ص306.

(3) جناس ناقص بين " فليل وقليل ".

(4) استعارة مكنية حيث جعل المؤلف للويل ذيلا.

(5) أي قصدها طالبا من أهلها جيشا.

وقبض على جماعة من الجند حصلوا في السجون مودعين، وبالمنون موعدين[1]، وجاءهم اليوم العبوس[2]، وحيزت منهم الأموال ثم حزت الرؤوس، وسحبوا إلى السّور ونصبوا عليه، وسلبوا حتى من ستر ما يحرم النظر إليه. وكان فيهم واحد من أعيان البلد وفضلائهم صلّى بما صلّوا، وحصل حيث حصلوا. ثم إن الوالي أخبر أنه قد اكتفى فكف، وأظهر أنه عفا وعن الدّماء عف، فأهدى الأمان، وأهدر ما كان، ولم تكن لأزمنة أمانه عدّة محسوبة، بل ولا مدّة محسوسة[3]، إنما كان يُنبذ به الاحتيال على الاغتيال[4]، وينسخه قبل التمكن من الامتثال، فقتل ناسا، وأظهر من الفظاظة أجناسا.

وأتِي برجل نجار، وكان بينه وبين القائد علقة جوار، وكان قد اطّلع على سرّه، وأراد الناس قتله خيفة شرّه، ولم يأمنوا أن يسم بريا بظلمه، أو يسمّي أحدا فلا تعمل الرُّقى في سمّه، فحين حضر عند الوالي واستنطقه، تكفل له بالصدق إن هو أطلقه، فقال تكلّم فأنت طليق، وأقبل عليه وهو بالاختلاق في ذلك الموقف خليق[5]، فأطال نجواه،/18/ومعه مداد ودرج كتب به كل ما أملاه، فحينئذ ساءت الظنون، وانتظر ما يكون، وانهل وُبْلُ البلاء، وسال غيم الغماء[6]، وبلغت القلوب الحناجر[7]، واتهمت العيون

---

(1) جناس ناقص بين " مودعين وموعدين ".

(2) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلف اليوم بالإنسان الذي له صفة العبوس.

(3) جناس ناقص بين " محسوبة ومحسوسة ".

(4) جناس ناقص بين " الاحتيال والاغتيال ".

(5) جناس ناقص بين " طليق وخليق ".

(6) مجاز مرسل، فالمطر هو الذي يسيل من الغيم.

(7) إشارة إلى قوله تعالى: "إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا". سورة الأحزاب، الآية رقم 10. نزلت هذه السورة تصور مشهد حصار المسلمين في غزوة الخندق (الأحزاب)، من طرف قريش وغطفان في ذي القعدة سنة 5هـ، وقد عانوا فيها أهوالا كبيرة واشتد عليهم الخوف والرعب.

المحاجر[1]، وبعد أن أسمعه النجّار ما أسمعه، قتله وثلاثة معه، وكان وُجد بدار القائد عيدان منجورة، ظَنّ أنها للثورة مدخورة، وقدِّر في النجار لسوء بخته، أنها من عمله ونحته، فقتل بها ضربا وشدخا[2]، واقتدح منها زند المنية فكانت عفارا ومرخا[3].

---

(1) محجر العين: بفتح الميم وكسرها وكسر الجيم وفتحها، وهو ما دار بالعين من العظم الذي في أسفل الجفن. وقيل هو ما يظهر من نقاب المرأة وعمامة الرجل إذا اعتم. لسان العرب، ج4، ص169.

(2) الشدخ: الكسر في كل شيء رطب، وهو التهشيم الذي يعني كسر اليابس. وقيل هو كسر الشيء الأجوف كالرأس ونحوه. لسان العرب، ج3، ص28.

(3) المرخ والعفار: شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر، ويسوّى من أغصانها الزناد (جمع زند) التي يقتدح بها. والزند والزندة هما العودان اللذان تقتدح بهما النار، ويسمى الزند العود الأعلى ويكون من شجر العفار، وتسمى الزندة العود الأسفل ويكون من شجر المرخ. وكانت العرب تضرب بهما المثل في الشرف العالي وفي تفضيل بعض الشيء على بعض فتقول: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار. أي أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر نارا وزنادهما أسرع الزناد وريا (انقادا واشتعالا). وفي المثل أيضا: اقدح بعفار في مرخ ثم شدّ بعد أو أرخ. يضرب في حمل رجل فاحش على رجل فاحش فلم يلبثا أن يقع بينهما شرّ. وقيل يضرب للكريم الذي لا يحتاج أن تكده وتلح عليه.
لسان العرب، ج3، ص53 وص195، وج4، ص589. الميداني، مجمع الأمثال، ج2، ص31 وص63.

قصة الغراب وتجهيزه بالحث وتوجيهه في البحر للبحث

وأثناء ما ذكر كانت أخبار العدو تزيد، وقضاء الله ينفذ كما يريد، فرأى الوالي أن يجهز غرابا يصل غدوّه بمسراه، ويذهب حتى يعاين مجتمع العدو في مرساه. فزجر منه أشأم طائر[1]، وزجّى منه واردا غير صادر، فإنه بعد أن شارف المجتمع، وقارب أن يرى وأن يسمع، عصفت عليه ريح ردّته، ولولا كمال عدّته لأردته، وما زالت تقلبه ظهرا لبطن، وتغلبه على اختياره وهو من أمر العطب على غير أمن، حتى انتهت به إلى غايته الشقية، ورمت به بَنِشْكُلَة[2] قاصية الثغور الشرقية. وهنالك تورّط في الساحل، وعنّى جوابا على السائل، وأخذ أهل/19/بَنِشْكُلَة جميع عدده، وجاء النصارى فأضرموا النار في جسده، وكان صحيفة استعجمت وعُهدت مقروءة، وعينا[3] لميورقة أصبحت مفقودة مفقوءة[4].

---

(1) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلف السفينة السوداء (الغراب) بالطائر الذي يزجر أي ينهر. والزجر للطير هو التيمن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسّانح والبارح، وهو من الطِّيَرة. لسان العرب، ج4، ص 319.

(2) بنشكلة (Peniscola): من ثغور شرق الأندلس، تقع على ضفة البحر جنوب طرطوشة وهي واحدة من حصونها وقلاعها المنيعة. وصفها الحميري بأنها عامرة وآهلة ولها قرى وعمارات ومياه كثيرة وبها عين ثرّة تريق في البحر. ويقابل مرساها من برّ العدوة مرسى جزائر بني مزغنة كما يقول البكري. وهي التي أنجبت واحدا من أغرب شخصيات التاريخ الأندلسي الذي حمل لواء الصراع الشهير ضد الموحدين، يتعلق الأمر بأبي عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي (518-567هـ/ 1124-1172م). وكان سقوطها في أيدي نصارى أراجون مع حصون وقرى أخرى سنة 632هـ/ 1234م، تمهيدا لسقوط الثغر الإسلامي العظيم وهو مدينة بلنسية سنة 636هـ/ 1238 م. البكري، المسالك والممالك، ص: 82. الحميري، الروض المعطار، ص104. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص131.

(3) استعارة مكنية شبه فيها المؤلف السفينة الحربية (الغراب) بالكائن الحي الذي له جسد وحواس كالعين وغيرها.

(4) جناس ناقص بين " مفقودة ومفقوءة ".

وفي أثر الغراب أرسل الوالي سلّورة[1] منجحة، نفضت على فضاء البحر أجنحة[2]، وخرجت تستوضح الأنباء المشكلة، حتى انتهت إلى وادي كرنة المجاور ثغر بَنِشْكُلَة. وعَدِمَ ذلك الساحل الحياطة فاعتمدته بحطّ، وأسرت فيه من الرّوم تسعة رهط[3]، ثم انصرفت بِتسعتِها[4]، تقتادهم بنسعتها[5]، وسُئِلوا بميورقة عن الجمع فقالوا قد تكامل للنهوض لمرساكم، وكأن به قد صبّحكم أو مسّاكم[6].

ثم عزّز الوالي من صغار القطع الحربية بثالث، وأمره بالاستجلاء لحقيقة كل حديث حادث، فصادفت ريحا حرج البحر بحرجفها[7]، وقطع القطعة عن طريق تعرّضها وتعرفها، ورمت بها سردانية[8] فأغارت في سهلها،

(1) جمعها سلالير، وهي مركب متوسط الحجم، يستخدم في الحرب والسّلم، وله ثلاثة أشرعة وأربعون مجذافا، وقد سمي بهذا الاسم لأن شكله يشبه شكل السلار وهو نوع من الطيور. المجالي سحر، تطور الجيش العربي في الأندلس، ص255.

(2) استعارة مكنية فيها تشبيه للسلّورة بالطائر الذي ينفض أجنحته.

(3) إشارة إلى قوله تعالى عن قوم ثمود: "وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون". سورة النمل، الآية رقم 48.

(4) جناس ناقص بين " تسعتها ونسعتها ".

(5) النسع: سير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال والجمع أنساع والقطعة منه نسعة. والأنساع هي الحبال واحدها نسع. لسان العرب، ج8، ص352.

(6) طباق الإيجاب بين " صبّحكم ومسّاكم ".

(7) الحرجف: الريح الباردة. وإذا اشتدت الرّيح مع برد ويبس فهي حرجف. وليلة حرجف: باردة الرّيح. قال الفرزدق:

إذا اغبرّ آفاق السماء وهتكت ... ستور بيوت الحيّ نكباء حرجف

لسان العرب، ج9، ص45.

(8) من جزر حوض البحر المتوسط الغربي، وصفها صاحب الروض المعطار بأنها جزيرة على طرف من البحر الشامي، كبيرة النظر كثيرة الجبال قليلة المياه. طولها 230 ميلا وعرضها من الغرب إلى الشرق 180 ميلا. سكانها أهل نجدة وحزم لا يفارقون السلاح. بها معادن الفضة الجيدة التي تخرج إلى كثير من بلاد الروم. دخلها مجاهد العامري صاحب جزر البليار سنة 409هـ =

وأخذت خمسة من أهلها. ولما استفهمهم الوالي أحال بعضُهم في الشهادة على النفي، واعتذر بالانقطاع والنّأي، وبعضهم قال إنّ أهل أرغون[1] في هذه السنة لا يتفرّغون، وهم ببلدهم شاتون، وفي الربيع المقبل آتون.

فقبل الوالي هذه التوسعة، واستخشن الهيجاء واستحسن الدّعة، وأذّن في الناس[2] أنّ العدو غير وارد، والمثلثة في القعود على رأي واحد، وسَارَّ أهل البادية وسرّهم، وبرّأهم من/20/مسألة القائد وبرّهم، وأذن لهم في الرّجوع بقضّهم وقضيضهم[3]، وخلا منسك الإمساك من مُنْفَضِّهم ومفيضهم، وإنما أراد أن يفرق الرّعايا، ويظهر ما خبّأ من البلايا.

وافتتح أكثرها وجدّد إحدى مدنها، ثم خرج عنها في العام الموالي بسبب الجوع والوباء الذي أصاب المسلمين فيها. الحميري، الروض المعطار، ص314.

(1) قامت مملكة أراجون الكبرى باتحاد أراجون وقطلونية في سنة 532هـ/ 1137م على يد الكونت رامون برنجير الرّابع أمير برشلونة، وبعد وفاته سنة 558هـ/ 1162م خلفه على العرش ولده ألفونسو الثاني الذي بدأ غزواته في الأراضي الإسلامية مبكرا، فراح يكرّرها على شرق الأندلس منذ سنة 566هـ/ 1170م. وبعد وفاته سنة 593هـ/ 1196م خلفه في مملكة أراجون وقطلونية ابنه الصبي بيدرو الثاني الذي بدأ حكمه تحت وصاية أمّه دونيا سانشا. وانشغل بيدرو الثاني وقتا بشؤون أملاكه فيما وراء البرنيه، ولكنه لم يغفل العناية بغزو الأراضي الإسلامية، وهي مهمة من مهام السياسة الأرجونية الأساسية، فخرج في حشوده سنة 607هـ/ 1210م صوب بلنسية واستولى على بعض حصون منطقة شنتمرية الشرق. ومات سنة 610هـ/ 1213م تاركا ولده الوحيد دون خايمي الذي أصبح يعرف بالملك خايمي الأول أو الفاتح وهو الذي استولى على جزيرة ميورقة. عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، ج2، ص 601.

(2) إشارة إلى قوله تعالى مخاطبا نبيه إبراهيم عليه السلام: " وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق". سورة الحج الآية 27.

(3) تقول العرب في أمثالها: "جاء بالقض والقضيض". والقضيض ما تكسر من الحجارة وصغر، والقض ما كبر. والمعنى جاء بالكبير والصغير. ويقال: جاء القوم قضهم بقضيضهم، أي كلهم. ويقال أيضا: جاؤوا قضّا وقضيضا، أي وحدانا وزرافات. فالقض عبارة عن الواحد، والقضيض عبارة عن الجمع. الميداني، مجمع الأمثال، ج1، ص223.

بيان ما أحدثه الوالي مما أضرم نار الحرقة وأبرم أسباب الفرقة

وعند خلاء الجو، وجلاء أهل البدو، ثارت أراقم[1] ضغنه، وكرّ بالأبطال على نصّ أمنه، وأمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر فساقهم، وحين حضروا عنده ضرب أعناقهم، فطُرِحوا بالعراء، ثم أُخرِجوا على هيئة فرطهم من الإعراء. وكان فيهم ابنا خالةٍ، كانا في البلد على أحسن حالة، وخالهما أبو حفص بن شيري ذو المكانة الوجيهة، والمُوَطِّن لنفسه الكريمة على الكريهة[2]، وسيأتي ذكره في حصار الجبل، وما كان له فيه من سداد الرأي والعمل. فأما أحدهما فجزع عند قتله، وأما الآخر فصبر صبرا ما عُهِد من مثله، وكان لا يخلو عن طهارة الحدث، فاستقبل القبلة غير مكترث، ودخل في صلاته وقرّ، وضربته السّيوف حتى خرّ.

وعند ذلك ضاق الرّحب، وعظم الرّعب[3]، وتعاور[4] جثث القتلى من الحركات الجرّ والنصب، فضاق الذرع بالمكروه، وفرّ إلى البادية كثير من الأعيان/21/والوجوه، واجتمعوا بابن شيري فأخبروه بما نزل، وعزّوه فيمن قتل. وقالوا هذا أمر لا يطاق، ونحن كل يوم إلى الموت نساق، فإن تداركنا الأمر ببقية الذّماء، أوشك أن نخلص من هذه الغماء، وإلاّ فزرعنا حصيد، وما منّا إلاّ من هو بشرك الشر مصيد[5]، وكيف لا نثقف في الرأي أحسن تثقيف،

---

(1) ومفردها الأرقم، وهو من الحيّات الذي فيه سواد وبياض. يقال للذكر أرقم، ولا يقال حيّة رقماء، ولكن رقشاء. والرّقم والرّقمة: لون الأرقم. قال رجل لعمر رضي الله عنه: مثلي كمثل الأرقم إن تقتله ينقم وإن تتركه يلقم. وقيل: الأرقم أخبث الحيّات وأطلبها للناس. والأرقم إذا جعلته نعتا قلت أرقش، وإنما الأرقم اسمه. لسان العرب، ج12، ص 249.

(2) جناس ناقص بين " الكريمة والكريهة ".

(3) جناس ناقص بين " الرّحب والرّعب ".

(4) اعتوروا الشيء وتعوّروه وتعاوروه: تداولوه فيما بينهم. وفي الحديث: "يتعاورون على منبري أي يختلفون ويتناوبون كلما مضى واحد خلفه آخر. يقال: تعاور القوم فلانا إذا تعاونوا عليه بالضرب واحدا بعد واحد. لسان العرب، ج4، ص 618.

(5) استعارة مكنية فيها تشبيه للشر بالصائد الذي ينصب شرَكه للصيد.

ولا بقاء لكوفة كُفَاتِنا مع مبيد ثقيف[1]، وعاهدوه على طلب الثأر، وعاقدوه على الإنجاد بأهل الأنظار، وبات الوالي تلك الليلة يقلّب يديه[2]، وينظر فيما لديه، ويرى أنّه قد توسّط من الشر لجّة[3]، وناظر بحجّة السّيف وحاذر مثلها حجّة.

(1) تشبيه لوالي ميورقة بأبي محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي (ت95هـ) نسبة إلى القبيلة العربية ثقيف التي كانت بالطائف. اشتهر بولائه للأمويين وحكم ولاية العراق عشرين سنة. عرف بالظلم والسطوة والشدة في تسيير الأمور، كما اشتهر بفن الخطابة أيضا. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4، ص132.

(2) كناية عن الحيرة التي ألمت بالوالي جرّاء ما وقع.

(3) لجة البحر: حيث لا يدرك قعره، ولجّ البحر الماء الكثير الذي لا يُرى طرفاه، ولجة الأمر: معظمه. واستعار حماس بن شامل اللّج للّيل فقال:

ومستنبح في لجّ ليل دعوته ... بمشبوبة في رأس صمد مقابل

يعني معظمه وظلمه. ولجّ الليل: شدّة ظلمته وسواده. لسان العرب، ج2، ص 354.

حديث مفاجأة الأسطول وإطلاله على الساحل للنزول

وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إمهال، فدعا بصاحب شرطته المنزوع الحياء والرّحمة، وأعطاه بطاقة بخمسين من أهل الوجاهة والنعمة، وأمره بإحضارهم، وعرّفه بأنه في انتظارهم. فانقض عليهم بذئابه العادية، وكلابه العاوية[1]، وحشرهم وهم سكارى[2] من الذعر[3]، أسارى في يد القهر[4]، قد نزلت بهم النوائب، وقامت عليهم النوادب، فاليوم عصيب والرّيق عاصب[5]، وخصاب الحياة ناصل/22/وهَمُّ فراقها ناصب، وحضروا بدار الوالي وقومه قَرِمُون[6] للحومهم، منتقمون من كرمهم بلومهم. حدّث بعضهم أنّه كان يرقب عين المنية متى تنظره[7]، ويروم قراءة آية من القرآن فلا تحضره.

---

(1) استعارة تصريحية فيها تشبيه من طرف المؤلف لجنود الوالي وصاحب شرطته بالذئاب والكلاب.

(2) إشارة إلى قوله تعالى في وصف الساعة: "يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد". سورة الحج الآية الثانية.

(3) كناية عن الخوف والرّعب الذي أصاب الأسرى.

(4) استعارة مكنية فيها تشبيه للقدر بالإنسان الذي له يد.

(5) عصب الفم يعصب عصبا وعصوبا: جف ويبس ريقه. قال ابن أحمر:

يصلي على من مات منا عريفنا ويقرأ حتى يعصب الرّيق بالفم

وقال ابن بشامة الحنظلي:

وإن لقحت أيدي الخصوم وجدتني نصورا إذا ما استيبس الريق عاصبه

لسان العرب، ج1، ص607.

(6) قرم يقرم قرما وهو شدة شهوة اللحم حتى لا يصبر عنه. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1035.

(7) استعارة مكنية فيها تشبيه للمنية (الموت) بالكائن الذي له عين كالإنسان وغيره.

وبينا العيون شاخصة، وظلال العيش قالصة، وأيدي المنون قابضة قابصة[1]، وعين الرّدى حارسة، وشجاجه[2] باضعة وحارصة، أقبل فارس على هيئة النذير العريان[3]، وظن الناس أنه يحدّث من عصيان الرعية عن العيان، ودخل من ساعته على الوالي فسأله ما الخبر المزعج، ولم هذا العَدْوُ المرهب المرهج[4] ؟ فقال قد جاءكم الرّوم، وهذه طيور مراكبهم على الساحل تحوم، وما جئت بالقلب المروع، حتى عددت فوق الأربعين من القلوع.

وما فرغ من إعلامه، ولا انقضى آخر كلامه، حتى جاء آخر من جانب آخر[5]، وقال إنّ أسطول العدو قد تظاهر، وأنّه عدّ سبعين شراعا،

---

(1) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلف المنون بالكائن الذي له يد كالإنسان وغيره.

(2) الشجاج: مفردها شجّة وهي الجرح الذي يكون في الوجه والرّأس فلا يكون في غيرهما من الجسم. وهي عشر: خمس ليس فيها قصاص، وخمس فيها قصاص. أما الخمس التي ليس فيها قصاص فهي الحارصة والباضعة والدامية والدامعة والسمحاق. وأما التي فيها قصاص فهي الموضحة والهاشمة والمنقلة والمأمومة والدامغة، ولكل شجّة منها مقدار من الإبل يتراوح ما بين خمس من الإبل وثلث الدّية. الإمام مالك، الموطأ، ص618. عبد القادر عودة، التشريع الجنائي في الإسلام، ج2، ص206.

(3) النذير العريان: هو رجل من خثعم، حمل عليه يوم ذي الخصلة عوف بن عامر بن أبي عوف بن مالك بن ذبيان بن ثعلبة بن عمرو بن يشكر فقطع يده ويد امرأته وكانت من بني عتوارة بن عامر ابن ليث بن بكر بن كنانة. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه قال: "إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل أنذر قومه جيشا فقال: أنا النذير العريان أنذركم جيشا". خصّ العريان لأنه أبين للعين وأغرب وأشنع عند المبصر، وذلك أن ربيئة القوم وعينهم، يكون على مكان عال، فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه ويبقى عريانا. لسان العرب، ج15، ص48.

(4) الرّهج: الغبار. وأرهج الغبار: أثاره. لسان العرب، ج6، ص 284.

(5) عندما أبحر الأسطول الصليبي بقيادة خايمي الأول ملك أرغون من ساحل قطلونية في طريقه إلى ميورقة في العاشر من شوال سنة 626هـ/ سبتمبر 1229م، كان عدد سفنه 150 سفينة كبيرة من مختلف الأنواع، وهو ما يؤكده ابن عميرة في نهاية هذه الفقرة. وبينما كانت سفن الأسطول تتجه إلى ثغر بلانسة Pollensa في أقصى شمال شرق جزيرة ميورقة، هبت ريح عاتية دفعتها قبالة الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة حيث اتجه قسم منها إلى جزيرة صخرية تدعى

ورأى السفن لجانب البر سراعا، فصحّ الأمر عنده بما انضمّ من القرائن إلى الأنباء، وبقي مترددا في الجماعة بين القتل والإحياء[1]. ثم عزم على استبقائهم، وأمر باستدعائهم، فسمح لهم بالصّفح والعفو، وعرّفهم بخبر العدو، وأمرهم بالتجهز للغزو، فخرجوا إلى دورهم، وكأنما أنشروا من قبورهم[2]. وتقدّم الوالي بالتنوير في البرج المنيف، وجعله في استنفار الرعية علامة هي مناط التكليف، فقال الناس نار وراءها جندلة المراجم[3]،/23/ ووافدها وافد البراجم[4]. وإنما أراد أن يوقع في شَرَك شررها، وتتم له حيلة تبسُّطِنا من

=

بانتالو Pantaleu وهي القوات التي خاضت أول معركة مع المسلمين في سانتا بونزا، وذهب القسم الآخر إلى ميناء بوراسا Porrasa حيث التقى بالمسلمين في معركة بورتوبي الواقعة على بعد 5 كلم من مدينة ميورقة في الثامن عشر من شهر شوال. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج2، ص172.

Clements Markham . The story of Majorca and Minorca pp 13-16.

(1) طباق الإيجاب بين " القتل والإحياء ".

(2) كناية عن الوضع الصعب الذي كان يعاني منه الأسرى.

(3) الجندل: الحجارة والواحدة جندلة. والمراجم جمع مرجام وهو الذي ترجم وترمى به الحجارة.

قال أمية الهذلي:

تمــرّ كجندلــة المنجنيــق ... يرمــي بهــا الســور يــوم القتــال

الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 1002. لسان العرب، ج11، ص128.

(4) إن الشقي وافد البراجم: مثل عربي يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعا. والقائل هو عمرو بن هند الملك، والسبب هو أن سويد بن ربيعة التميمي قتل أخاه وهرب، فنذر الانتقام وأحرق به مائة من تميم وتسعة وتسعين من بني دارم وكلهم من النساء والصبيان، ولم يقتل سوى رجلا واحدا من البراجم يسمّى عمارا. وكان عمرو بن هند الملك قد أعدّ ذات يوم نارا ليحرق بها عجوزا تميمية، فلما رأى عمار الدخان بسطع قصده ظنا منه أنه طعام، فوجد عنده عمرو بن هند في رجاله. وبعد أن سأله عن سبب قدومه قال له: إن الشقي وافد البراجم، وأمر به فألقي في النار، وذهبت كلمته مثلا وفي ذلك يقول جرير:

وأخـزاكم عمـرو كـما قـد خـزيتم ... وأدرك عـمارا شـقي الـبراجم

=

تبصُرها، فما عشي إليها عاش[1]، ولا بات أحد إلاّ وقد غشيه من الذّعر غاش.

ثم جاءهم ثقاتهم في الخبر بالثبت، وذلك في اليوم الثاني الذي هو يوم السبت[2]، وفيه وصل بعض الأجراء الساحلية، فحققوا أنهم عاينوا العدو فيما يليهم من البحر مارا، ولكتائبه البحرية الحربية جارّا، وانّهم عدَوا من القلوع مائة وخمسين ريحها رخاء[3]، وعدْوُها في تلك الأرجاء إرخاء[4]، فدلّ طريقهم أنهم يَؤُمّون جهة مخصوصة، ويقصدون المرسى المعروف بشنت بوصة[5].

=

كما عيرت تميم بنقب الطعام بسبب ما لقي عمار هذا. الميداني مجمع الأمثال، ج1، ص17 وص548.

(1) عشا يعشو إذا أتى نارا للضيافة. وعشا إلى النار وعشاها عشوا وعشوّا واعتشاها واعتشى بها: رآها ليلا على بعد فقصدها مستضيئا بها. قال الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

أي متى تأته لا تتبين ناره من ضعف بصرك. وعشوت إلى النار أعشو إليها عشوا إذا استدللت عليها ببصر ضعيف. والعرب تقول: عشوت إلى النار أعشو عشوا أي قصدتها مهتديا بها، وعشوت عنها أي أعرضت عنها، فيفرّقون بين إلى وعن موصولين بالفعل. لسان العرب، ج15، ص 57.

(2) أي السادس عشر من شهر شوال/ الثامن من سبتمبر.

(3) الريح الرُّخاء: الريح اللينة السريعة لا تزعزع شيئا. قال تعالى عن نبيه سليمان: "فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب". سورة ص، الآية 36. وحيث أصاب أي حيث قصد. لسان العرب، ج14، ص 315.

(4) الإرخاء: شدة العَدْوِ. وقيل: هو فوق التقريب. قال امرؤ القيس:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

لسان العرب، ج14، ص 315.

(5) شنت بوصة أو سانتا بونزا Santa Ponza: يقع هذا المرسى في الجنوب الغربي من مدينة ميورقة ويبعد عنها بحوالي ستة عشر كيلومترا (10أميال). وفيه جرت أول معركة بين المسلمين والنصارى. عصام سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص421.

خبر الرّوم حين تأهّبوا بالمرسى

المذكور وتهيّأوا من عبره للعبور

لما اصطفت هنالك الكتائب، واصطافت القطع والمراكب، وآن أن ينزل الفارس ويركب الرّاكب، وذلك في آخر شهر رمضان من السّنة[1]، ورائد الأنواء[2] يشكّك في الأمنة، ويقضي بما يكون في المستقبل قضاء الكهنة، رأى الرّوم الرياح متخالفة، ورجّة[3] البحر لسكونه خالفة، وقالوا شهور القيظ قد انقضت، ومدّة سكون البحر قد مضت، وبروق هيجانه قد أومضت، ولا يخفى أن الفصل مخيف، وكيف الإقدام على سفر بحري خفيره الخريف، وما من مجتهد إلاّ ويحظر/24/هذا السفر قد أفتى، وإذا

---

(1) شرع نصارى أرغون بقيادة ملكهم خايمي الأول في الإعداد والاستعداد لخوض الحملة الصليبية ضد جزيرة ميورقة ابتداء من شهر جمادى الأولى سنة 626هـ/ أفريل 1229م. وفي آخر رمضان/ أوت من نفس السنة أنهى الصليبيون استعداداتهم على ساحل قطلونية، فأبحر الأسطول في العاشر من شهر شوال/ سبتمبر باتجاه جزيرة ميورقة، ليشتبك مع قواتها في الثامن عشر من نفس الشهر. عصام سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص415 وما بعدها.

(2) الأنواء: جمع نوء، والنوء هو سقوط نجم في المغرب وطلوع آخر في المشرق ، فالساقطة في المغرب هي الأنواء، والطالعة في المشرق هي البوارح. وكانت العرب تقول مطرنا بنوء كذا، أي مطرنا بطلوع نجم وسقوط آخر. جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: من قال سقينا بالنجم فقد آمن بالنجم وكفر بالله، ومن قال سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بالنجم. والأنواء ثمانية وعشرون نجما هي: الشرطان، والبطين، والنجم، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والخراتان، والصرفة، والعوّاء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخر، والحوت. لسان العرب، ج1، ص176-177.

(3) الرّج: التحريك. وارتجّ البحر وغيره: اضطرب. وفي الحديث: من ركب البحر حين يرتجّ فقد برئت منه الذّمة، يعني إذا اضطربت أمواجه وتحركت بشدّة. ورجّة القوم: اختلاط أصواتهم. ورجّة الرّعد: صوته. لسان العرب، ج2، ص282.

لم يتأت الآن فنتركه إلى أن يتأتّى.

فمشوا إلى ملكهم على أن يطلبوه بأحد الأمرين: إرجاء السّفر إلى الرّبيع إذا جاء[1]، أو الانصراف بالغزو إلى أي بلاد البرّ شاء، فلمّا دخلوا عليه سَبَرَ مُعَوَّلهم، وسبق بالكلام أوّلهم، وقال حضرتم على غير وعد، وقد أردتكم لما أعهده إليكم من عهد. ثم قال إني لوجهي هذا ماض، وبِرَضِ المشاق فيه راض، ولست آمن من الاخترام، قبل الظفر بهذا المرام، وخرّج إن مات على أولياء الطاغوت[2]، أن يضعوا جثته في التابوت[3]، ثم يركبوا السفين، ويحملوا معهم الدّفين، ويرحلوا به عند الرحيل، ويقدّموه وقت القتال في أوّل الزّعيل[4]، فإذا أخِذ البلد وَارَوْهُ في تربته، وقضوا بذلك ذمام صحبته، وقال هذا عهدي إليكم فأنفذوه إن كان التثليث معتقدكم، وليت تماثيل أهل الإنجيل متعبدكم.

ثم حلف بالولد والوالد، والمتكثر غير الواحد[5]، إن عاش فالرّاحة

---

(1) لما كان الأسطول الصليبي على أهبة الإبحار قاصدا ميورقة، ساءت الأحوال الجوية وعصفت الرياح الجنوبية الغربية وعلت أمواج البحر واشتد اضطرابه، فتقدم قبطان سفينة القيادة نيقولا بونيه Nicolas Bonet إلى الملك خايمي الأول ونصحه بالتريث والانتظار حتى تتحسن الأحوال الجوية، ولكن الملك رفض هذا الاقتراح بشدة وصمم على الإبحار.

Frederick Chamberlin. The Balearics and their peoples. P08.

(2) إشارة إلى قوله تعالى: "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون". سورة البقرة، الآية 257.

(3) جناس ناقص بين " الطاغوت والتابوت ".

(4) جناس ناقص بين " الرّحيل والزّعيل ".

(5) طباق الإيجاب بين " المتكثر والواحد ".

منه مطلّقة[1]، ومراجعتها بشرط أخذ الجزيرة معلّقة، وأنّه إن تمكن من برّها فلا يفارقه حتى يملكها، أو تصادف نفسه دون ذلك مهلِكها، فلما بلوا ما عنده، ووعوا أليّته وعهده، اتفقوا على إسعاده، وتعاهدوا على ترك مُرادّته ومرادِه، وبقوا على البحر يرتقبون إجازته، وينتظرون أن يقطعوا بركائب المراكب مفازته.

(1) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلّف الرّاحة بالمرأة التي يقع عليها الطلاق الرّجعي.

عاد الحديث عن إطلالهم على البر وإطلاقهم أعنة الشر

/25/ولمّا طاب البحر للمسافر، واغتنم الكابر الحَرِدُ سجاحة الكافر، فركب بجمعه، ولجّ حتى لجّج في قطعه، وحين أتم العبور، وقصد بنزوله المرسى المذكور، أخرج الوالي جماعة تسدّ تلك المسالك، وتمنعهم النزول هنالك، فباتوا على المرسى في الرَّجل والخيل، وأجفان الرّوم سطور تمنع قراءة سوادها سواد الليل.

وبات المقدّمون على الجماعة وهم من قوم الوالي يتجارون المنكر، ويتهادون المسكر[1]، وهم بالمعاقرة[2] عارفون، وللمقارعة عائفون، وقال لهم الناس إنّ هاهنا مرسى آخر[3]، ولا نأمن أن يقصده الرّوم فعزمهم ساهر، والليل لهم ساتر، وإن جازوه ولا حامي له نزلوا بساحته، وحصلوا على استباحته، والرأي أن تكون هنالك جماعة تذكي العيون وتمنع هذا المتوقع أن يكون، فزجرهم أولئك المقدمون، وقالوا كيف تنصحون وأنتم المتهمون[4].

فلما جن الليل على النصارى ذهبوا كما قدّر، وتأتى لهم النزول حيث ذكر، فنزل منهم تلك الليلة بذلك المرسى خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل، فأصبحوا هنالك في الثامن عشر من شوال، وهو يوم الاثنين، وسار إليهم الجمع ولا رغبة/26/لهم في إحدى الحسنيين، فحين رأوهم

---

(1) جناس ناقص بين "المنكر والمسكر".

(2) العُقارُ: الخمر، سميت بذلك لأنها عاقرت العقل أي لزمته. يقال: عاقره إذا لازمه وداوم عليه. والمعاقرة: إدمان شرب الخمر. فلان يعاقر النبيذ أي يداومه، وأصله من عقر الحوض، وهو أصله والموضع الذي تقوم فيه الشاربة، لأن شاربها يلازمها ملازمة الإبل الواردة عقر الحوض حتى تروى. لسان العرب، ج4، ص 598.

(3) هو مرسى شنت بوصة (سانتا بونزا) الذي سبق التعريف به، وسيشهد أول صدام مسلح بين مسلمي الجزيرة والنصارى الغزاة.

(4) جناس ناقص بين "المقدمون والمتهمون".

تهيّأوا وحاموا، ثم تهيبوا وخاموا[1]، فاندفعوا أمامهم، وقصّروا فركب الرّوم[2] قصرهم وهَامَهم، واتبعوهم أميالا، وأخذوا لهم خيلا وقتلوا منهم رجالا. وكانت هذه الهزيمة أول البلايا[3]، وفاتحة الرّزايا، وعنوان الشرّ النازل، وابتداء المرض القاتل، وخلا للرّوم وجه الساحل فتوافوا عنده، ونزلت بقيّتهم بقية ذلك اليوم وليلة الثلاثاء بعده[4].

---

(1) خام عنه يخيم خيما وخيمانا وخيوما وخياما وخيمومة: نكص وجبن. وخاموا في الحرب: لم يظفروا بخير وضعفوا. والخائم: الجبان. وخام عن القتال يخيم خيما وخام فيه: جبن عنه. لسان العرب، ج12، ص194.

(2) مجاز مرسل لأن الروم لا تركب، وإنما جنودها هم الذين يركبون.

(3) كان هذا أول صدام مسلح بين مسلمي ميورقة ونصارى أرغون في معركة شنت بوصة، وقد حضرها من الجانب الصليبي كبار القواد وعلى رأسهم تونيو سانشيز كونت (أمير) روسيون، والأخوان رامون وجلين دي مونكادا، وبرنارد دي شامبانس قائد فرسان المعبد وغيرهم. ونسجل هنا الفرق بين ما ذهب إليه ابن عميرة من أن المسلمين انهزموا وتراجعوا دون مقاومة، وبين الرواية المسيحية القائلة بأن انسحاب القوات الإسلامية جاء بعد أن أوقعت خسارة فادحة في صفوف القوات الغازية.

Frederick Chamberlin. The Balearics and their peoples. P16-19.

(4) كان تعداد القوات النصرانية التي خاضت معركة شنت بوصة حسب رواية ابن عميرة خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل، وهو ما يقارب ثلث القوات الغازية مجتمعة. وبانسحاب المسلمين من المعركة المذكورة تجمعت كل القوات النصرانية على طول الساحل الممتد من شنت بوصة إلى مدينة ميورقة، وقوامها ألف وخمسمائة فارس، وعشرين ألفا من المشاة، وستة عشر ألفا من البحارة يتقدمهم الملك خايمي الأول استعدادا لخوض المعركة الكبرى.

حديث الوقعة الكبرى

وعندما انتهى إلى البلد ذلك الفل[1]، واستقر بجمع الروم ذلك المحل، عزم الوالي على النهوض لقتاله، وحشر من غاب وحضر من فرسانه ورجاله، وخرج وحاله عن المآل تترجِم، وأمره يقضي بنحسه من لا ينجّم. فرغب الناس منه أن يتأنى قليلا، ويجعل بين البلد وبينه ميلا، ويتربص بالرّعية نزول نازلها، وتفرّغ حالبها وناقلها، وتأتّي الاستظهار بفارسها وراجلها. فتصلب في مناجزة أهل الصليب، ومشى على غير نظام ولا ترتيب، ومعه من الفرسان ألفان إلاّ مائتين، قليلون بالمعنى كثيرون[2] في العين، فأمّا الرّجالة فكانوا عشرين ألفا، أكثرهم ما شهد زحفا، ولا حضر من مصاف القتال صفا.

وبات بهم ليلة الثلاثاء في منزل نزله،/27/وقد ولّى من حاكم الاستبداد ما عزّه ثم عزله، وركب إثر صلاة الصبح، وعارضه لا تبدو منه مخيلة النجح[3]، فكان دأبه في مشيه أن ينادي قومه المرّة بعد المرّة، ويستطعم ما عندهم ليوم الكريهة المُرّة[4]، وإذا لقوا العدو فكيف يجالدون، وبأي عزم يجاهدون[5]، فيجيبونه بأنهم يثبون إليهم ويثبتون لمثليهم، ويشربون كل جنان حب الحفاظ، ويشرعون كل سنان إلى تلك الأفئدة الغلاظ، حتى دنا من عسكر الرّوم، ومعه ألف الغيران وقفا المهزوم.

---

(1) الفَلُّ: المنهزمون. وفلّ القوم يفلّهم فلاّ: هزمهم فانفلّوا وتفلّلوا. وهم قوم فلّ: منهزمون، والجمع فلول وفلاّل. والفلّ: الكتيبة المنهزمة. لسان العرب، ج11، ص531.

(2) طباق الإيجاب بين " قليلون وكثيرون ".

(3) النجح والنجاح: الظفر بالشيء. لسان العرب، ج2، ص611.

(4) كناية عن موصوف وهو يوم الحرب.

(5) جناس ناقص بين " يجالدون ويجاهدون ".

وهنالك جاءه فارس أخبره أن جمع العدو فرق ففرّ، وذُعر فابْذَعَرّ[1]، فالتفت إلى قومه وقد ساءه انهزام الرّوم بغيرهم، وذمرهم على التباطؤ في سيرهم، فتبادروا لتنسب إليهم الهزيمة، وتكون لهم الغنيمة. وكانت هنالك عقبة عرض عليه الناس أن يقف على رأسها، ويبني أمر الحرب على أسّها، فأبى إلاّ النزول للنزال، والهجوم على الليوث في الأغيال[2]، واعتمد من سعد يومه ما كان حبلهم المبرم، وجيشهم العرمرم. ثم إنّه استوقف العسكر، ونزل فلبس الدّرع والمغفر، وتقلّد الأبيض[3] واعتقل الأسمر، وركب بين الرّجالة، ومعه صورة الجزالة، وظهرت للرّوم طلائعُ أصاب المسلمون فيهم فرصة، وحاصوا أمامهم فاقتطعوا منهم حصة.

وبرز صاحب طرطوشة وكان قد احتفل لهذه الغزوة، واستظهر بالعدّة/28/والقوة، وسرّح بكل مارد[4] مازج، وسَبّح في بحر من الحديد مائج. ويزعم النصارى أنّه كان قد أنذر قبل دخول الجزيرة بأنه يموت في وقعتها، ثم يكون استيلاؤهم على بقعتها، فحمل بجماعته، وشد بالعصاة من

---

(1) ابذعرّ الناس: تفرقوا. وفي حديث عائشة: ابذعرّ النفاق أي تفرّق وتبدّد. وابذعرّت الخيل وابثعرّت إذا ركضت تبادر شيئا تطلبه. قال زفر بن الحرث:

فلا أفلحت قيس ولا عزّ ناصر   لها بعد يوم المرج حين ابذعرّت

لسان العرب، ج4، ص 51.

(2) مفردها غيل. وهو الشجر الكثيف الملتف الذي ليس بشوك. يقول الشاعر:

أسد أضبط يمشي   بين طرفاء وغيل

والغيل جماعة القصب والحلفاء. والغيل: الأجمة، وموضع الأسد غيل. لسان العرب، ج11، ص512.

(3) يريد السيف.

(4) المارد: العاتي. مرد على الأمر يمرد مرودا: أقبل وعتا. وتأويل المرود أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف. المارد من الرجال: العاتي الشديد، وأصله من مردة الجن والشياطين. لسان العرب، ج3، ص 400.

أهل طاعته[1]، فسلّوا السّيوف واستسهلوا الحتوف، وأبصر الذين شقوا موقف الوالي فشقّوا إليه الصفوف، وأفرج المسلمون لهم حتى توسطوهم، ثم ضربوهم بالسيوف حتى فرشوهم على الأرض وبسطوهم[2]. وحمل جماعة من الرعية على ما يليهم من الصف فقرعوا نبعه، وفرعوا هضبه، وخسفوا وثيق البنيان، وكشفوا فريق الصّلبان.

وبينا بحر الحرب يعبّ، وريح النصر تكاد تهبّ، جاء الوالي أحد قومه وقال إن الرّوم قد احتدم ثأرهم، وزخر تيّارهم، وقد حدّقوا زرق الأسل، وحلفوا لأخذ هذا الجبل، وإن ملكوه سفلنا بصعودهم، وصرنا نقدًا لأسودهم، فتوقّهم بتوقّله[3]، وخذ أعلاه وتخلّ عن أسفله[4]. فَرَاطَن قَوْمَه أن يستتروا بجنّته[5]، ويتقوا وقع القنا بقنّته[6]، فأجفلوا إليه كالظلمان[7]، وأرادوا الاعتصام به من ذلك الطوفان[8]، فانتقضت تلك العزيمة، وحسب الناس أنها الهزيمة، فولّوا الدّبر، وعظم الخطب وكبر، وكلّ من صعد الجبل لم يمكث

(1) كناية عن أخذ العزيمة من أهل طاعته الذين لهم الثقة والإخلاص.

(2) كناية عن انتصار الميورقيين على الكفار وقتل الكثير منهم.

(3) التوقل: وقل يقل وقلا ووقولا، وتوقل توقلا في الجبل أي صعّد فيه. والواقل: الصاعد بين حزونة الجبال، وكل صاعد في شيء متوقل. والتوقل هو الصعود. وفي المثل: أوقل من غفر، وهو والد الأروية أنثى الوعول. لسان العرب، ج11، ص733.

(4) طباق الإيجاب بين " أعلاه وأسفله ".

(5) الجُنّة، بالضم: ما واراك من السلاح واستترت به منه. والجنة: السترة، والجمع الجنن. يقال استجن بجنته أي استتر بسترته، وقيل: كل مستور جنين. والجنة: الدرع، وكل ما وقاك جنة. لسان العرب، ج13، ص94.

(6) القنة، بالضم: الجبل الصغير، وقيل الجبل السهل المستوي المنبسط على الأرض، وقيل هو الجبل المنفرد المستطيل في السماء. وقنة كل شيء أعلاه مثل القلة. وقنة الجبل وقلته: أعلاه، والجمع القنن والقلل. لسان العرب، ج13، ص348.

(7) تشبيه تمثيلي حيث شبّه المؤلف قوم الوالي بالظلمان والأداة هي الكاف.

(8) استعارة مكنية فيها تشبيه لجيش النصارى بالطوفان في قوتهم وجبروتهم.

فيه فُوَاقًا، وانحط عنه فرارا وأزمع له فِرَاقا.

وكان الرّوم قد اتبعوا منهزمتهم/29/ليردّوهم، وأرادوا أن يقطعوهم عن الطريق للهرب ويصدّوهم، فخلأ الفريقان المعترك، وهرب الذي هرب وما رهب الدّرك، ثم إن الرّوم تراجعوا فوجد واردهم المحلأ محلاً، وأصابوا الجو خاليا والسّلاح مخلاً، واتبعوا المسلمين على طريق المدينة وهم عنها عائجون[1]، وإلى الفتن عارجون[2]، فلذلك قلّت في هذا الزحف قتلاهم، وتلاحق في النجاة آخرهم بأولاهم[3]. ولم ينجح منهم أحد إلاّ أعزل أكشف، ولا كان فيهم من أبقى بيده ولا على جسده الدّرع ولا المرهف، فاحتوى الرّوم على كل ما طرحوا، وجالوا بقية يومهم هنالك وسرحوا، ثم ظهروا بالعدة والعدد، وأقبلوا لحصار البلد.

---

(1) عاج بالمكان وعليه عوجا وعوّج وتعوّج: عطف. وعجت بالمكان أعوج أي أقمت به. وفي حديث إسماعيل عليه السلام: هل أنتم عائجون؟ أي مقيمون. يقال عاج بالمكان وعوّج أي أقام. وقيل عاج به أي عطف عليه ومال وألمّ به ومرّ عليه. وفي حديث أبي ذر: ثم عاج رأسه إلى المرأة فأمرها بطعام أي أماله إليها والتف نحوها. لسان العرب، ج2، ص 333.

(2) جناس ناقص بين " عائجون وعارجون ".

(3) طباق الإيجاب بين " آخرهم وأولاهم ".

وارتحل النصارى إلى المدينة، ونزلوا منها على الحريبة[1] الحزينة، وأحاطوا بها في الكُثر والقُل[2]، ونزلوا عليها من جهة باب الكحل[3]، فضربوا الأخبية وضمّوها، وأكملوا أهبة النّزل وأتمّوها، ورتبوا فرسانهم ورجّالتهم، وأقبلوا بالسفن فجعلوها في البحر قبالتهم، فملأت ذلك المهرق[4] سطورها، وأرخيت على وجه الماء ستورها. وكان الشتاء عن نابه قد كشّر[5]، والفصل لِمُلاءِ غيمه قد نشر، والوقت مظِنّة/30/ارتجاج البحر العجاج، وإقبال أفواج

(1) الحَرَبُ: أن يسلب الرجل ماله. حربه يحربه إذا أخذ ماله، فهو محروب وحريب. وحريبته: ماله الذي يسلب منه. وقيل: حريبة الرّجل: ماله الذي يعيش به. والجمع حرائب. وفي حديث بدر، قال المشركون أخرجوا إلى حرائبكم. وفي حديث المغيرة: طلاقها حريبة، أي له منها أولاد، إذا طلقها حربوا وفجعوا بها، فكأنهم قد سلبوا ونهبوا. لسان العرب، ج 1، ص 304. وقد جاءت هذه العبارة في النص الذي نقله المقري في النفح على النحو التالي: "الحربية الحزنية"، وهو تصحيف زاد العبارة غموضا، وقد استشكلت على شكيب أرسلان فأخطأ في التعليق عليها، الحلل السندسية، ج2، ص246، الهامش رقم 1.

(2) طباق الإيجاب بين " الكثر والقل ".

(3) باب الكحل: أحد أبواب مدينة ميورقة وكان يقع في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، ومنه كان اقتحامها بعد الحصار من طرف الغزاة. وسمي فيها بعد باسم باب المهاجم ثم الباب المدهون وفي نهاية القرن 19م أطلق عليه اسم باب الركن. هذا وقد كان لسور مدينة ميورقة في نهاية عهدها الإسلامي ثمانية أبواب وهي: باب الكحل، باب البلياط، باب الشراجب، باب الغدر (جمع غدير)، الباب الجديد، باب المدى، باب البلد، الباب الغربي. ألبارو كامبانير، تخطيط تاريخ للحكم الإسلامي في جزر البليار. ص 187.

(4) المُهْرَقُ: الصحيفة البيضاء يكتب فيها، والجمع المهارق، وهي كلمة فارسية معربة. وقيل: المهرق ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه. قال حسان:

كم للمنازل من شهر وأحوال لآل أسماء مثل المهرق البالي

والمهرق: الصحراء الملساء تشبيها لها بالصحيفة. لسان العرب، ج10، ص368.

(5) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلف الشتاء بالحيوان المفترس كالأسد والذئب وغيرهما، وقد حذف المشبّه به وترك أحد لوازمه يدل عليه وهو الناب.

الأمواج، فما لعبت أيدي الرّياح بتلك الرخاخ، ولا لغبت تلك النعم المعقلة في ذلك المناخ.

ثم إن الرّوم أقاموا المجانيق، وأحكموا بناءها الوثيق، وصنعوا منها ثلاثة قائمة في الهواء، قاصمة بالدّاهية الدّهياء[1]، مظهرة قطع الجبال طيرا مسخرات في جو السّماء، ترمي فوق العشرين رُبْعًا، وتملأ القلوب رعبا، وكان رميها داخل البلد فأخليت جهة وقع حجارتها، وتنحّى المزور عن طريق زيارتها، وعدلوا عنها إلى أقل حجما، وأقتل رجما، وأمطر سحابة[2]، وأكثر إصابة.

فكملت في الأيام القريبة، ومُنِي البلد منها بالأيام العصيبة، والرّزايا المصيبة، وكان رماتها أخذوا قراءة الرّماية عن القارة، ورموا منها عن القسي الصقارة، فاستعملت في تركيب السّور طريق التحليل، وجاءت بما لا قبل به من الخطب الجليل، وتمكّن الدّاء من ذلك الجسم المعتل، واشتكى البناء من الحجر المنهد بالحجر المنهل، وعزائم المسلمين في القتال ثبتت وما انثنت، وقوتهم ما وهت ولا وهنت.

وكانت لهم على باب الكحل قنطرة يخرجون عليها إلى العدو، ويمنعونه من التبسط والدنو، فرأوا هدمها مكيدة، وحسبوا زوالها منفعة عتيدة،

(1) الداهية الدهياء: من شدائد الدهر وعظائم نوائبه التي تصيب الناس. قال الشاعر:

أخــو محافظــة إذا نزلــت بــه دهيــاء داهيــة مــن الأزم

لسان العرب، ج14، ص275.

(2) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلف الحجارة الصغيرة التي كانت ترميها المجانيق بالسحابة التي تمطر ماء.

واتفقوا على تعطيل تلك المسلحة[1]، وغفلوا عمّا كان فيها من المصلحة. فإنهم لما هدموها تعذّر/31/عليهم الخروج، وأحاط بهم العلوج[2]، وخلا لهم ذلك السبيل فسلكوه، وأخذوا البناء الذي كان بطرف القنطرة فملكوه.

ولمّا رأوا أنّ ضرب المجانيق وإن هتم[3] وهتك[4]، وفتّ وفتك، وأنهب أكثر مما ترك، لا يوصل صلالهم[5] إلى الوخز، ولا يمكّن لصوصهم من فك الحرز، دلفوا إلى البلد بركب الكرب، وتركوا ظاهر السّور للمرسى وطلبوا باطنه بالنقب، فحفزوا وحفروا، وتوافوا على الجدّ وتوفروا، وأجنّت منهم أطياف الثرى أشباه الجنّة، وسكنوا بطون التراب أمثال الأجنة، من كل ضب كضب في مغارته، وشانئ شانٍ تحت الأرض لغارته، منجحر كالصّلّ في الصرّ، مستكن في صدر الثرى كالسر، سار في تلك الظلمات، ساكن وهو من الأحياء منازل الأموات.

وكان خندق البلد قد أُحكِم خرقه، وعظمت سعته وعمقه، فقدّروا

---

(1) يريد القنطرة التي كانت بمثابة ثغر ومرقب يرقب منها المسلمون عدوّهم ويمنعونه من أن يطرقهم على غفلة.

(2) العلوج، والمفرد علج والأنثى علجة: وهو الرجل القوي الضخم من كفار العجم. لسان العرب، ج2، ص326.

(3) الهتم: هتم فاه يهتمه هتماً: ألقى مقدّم أسنانه. وهو انكسار الثنايا من أصولها وقيل من أطرافها، وأهتمته إهتاما إذا كسرت أسنانه. قال جرير:

إن الأراقم لن ينال قديمها ... كلب عوى متهتّم الأسنان

الهتامة: ما تكسّر من الشيء. لسان العرب، ج12، ص 600.

(4) جناس ناقص بين " هتم وهتك ".

(5) الصلال، والمفرد صلّ: وهي الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها، ولا تنفع فيها الرقية. ويقال للرجل الداهي المنكر في الخصومة: صلّ أصلال أي حية من الحيّات. لسان العرب، ج11، ص385.

أنهم قد نزلوا تحته، وأخذوا إلى جهة البلد يَؤمّون سمته[1]، فأخطأوا طريق ذلك المغلق، وأفضى بهم النقب إلى جانب الخندق، فانبجست به ينابيعهم، وخنست منه يرابيعهم، وحينئذ مالوا إلى السّفل بالحفر، وهوى في تلك الهاوية من كان هنالك من شرذمة الكفر[2].

---

(1) السّمت: الطريق. وسمتُ الطريق: قصده، والسّمت: السّير على الطريق بالظن، وقيل: هو السير بالحدس والظن على غير طريق. قال أعرابي:

سوف تجوبين بغير نعت ... تعسّفا أو هكذا بالسّمت

يريد السير على غير علم ولا أثر. لسان العرب، ج2، ص 46.

(2) إن رواية ابن عميرة عن حفر الخنادق العميقة حول المدينة قد أكدتها الرواية المسيحية نفسها، إذ أشرف الملك خايمي بنفسه على حفر خندق جوفي أمام باب الكحل شمال شرقي السور. كما أشرف الكونت أمبورياس على حفر خندق آخر في الجانب الغربي من السور على مقربة من الباب الغربي (بورتوبي). وكان الهدف من حفر الخنادق هو الوصول إلى المياه الجوفية ومحاولة تدمير أسس الأسوار من أجل الدخول إلى الميدان الرئيسي للمدينة ولكن المحاولة باءت بالفشل. ميجيل الكوبير، الإسلام في ميورقة، ص ص65-68.

قد أكثر المؤلف في كلامه عن حفر الخنادق من التشبيهات التي شبه فيها النصارى وهم يحفرون بالضب والحية واليربوع وغيرها.

حديث اجتماع أهل البادية لإصراخ

الحاضرة ومناجزة فئة الكفر الحاصرة

/32/وثابت إلى الرعية سكينتهم، وأَنِفُوا من أن تحصر مدينتهم، وقالوا أنسلمها للعدو ولنا القوة والجلد، وفينا العدّة والعدد؟ ولو قرعناه لقلعناه[1]، ومتى أردناه طردناه، وجمعوا وحشروا، وطووا ونشروا، وانظموا والتأموا، وتلبّبوا واستلأموا[2]، وأرسلوا إلى الوالي أن ابعث لنا رجلا نكون طوعه، ونأمن من روعه، فندب لهم من قومه مشهورا بسوء البخت[3]، مشهودا له عند البحث بالجبن البحت[4].

فلمّا دنا بهم من عسكر الرّوم هاج به الخور[5]، وهاله قبل الخُبر الخَبر[6]، وفرّ عن القصد المرُوم بالقلب المرُوع، وفرّق تلك الجموع بفرقه المجموع. وهذا الشخص هو الذي أشار على الوالي يوم الوقعة الكبرى

---

(1) جناس ناقص بين " قرعناه وقلعناه ".

(2) من اللأمة وهي الدّرع وتطلق على السلاح أيضا. وقد استلأم الرجل إذا لبس ما عنده من عدّة رمح وبيضة ومغفر وسيف ونبل. لسان العرب، ج12، ص532.

(3) البَخْتُ: كلمة فارسية تكلّمت بها العرب ومعناها الجَدُّ والحظوة والحظ والرّزق. يقال فلان ذو جدّ في كذا أي ذو حظ. قال صلى الله عليه وسلم: "قمت على باب الجنّة فإذا عامة من يدخلها الفقراء وإذا أصحاب الجدّ محبوسون"، أي ذو الحظ والغنى في الدنيا. ورجل بخيت: ذو جَدٍّ. والمبخوت: المجدود. لسان العرب، ج2، ص 9، وج 3، ص 107.

(4) جناس ناقص بين " البخت والبحت ".

(5) الخَوَرُ: الضعف. وخار الرجل يخور خؤورا وخَوِر خورا وخوّر: ضعف وانكسر. ورجل خوّار: ضعيف. وكل ما ضعف فقد خار. والخوّار: الضعيف الذي لا بقاء له على الشدة. وفي حديث عمر: "لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو"، أي لن يضعف صاحب قوة يقدر أن ينزع في قوسه ويثب إلى دابته. لسان العرب، ج4، ص 262.

(6) الخبر، بالفتح: ما أتاك من نبأ عمن تستخبر وهو جمع أخبار. والخبر، بالضم: هو العلم بالشيء أيضا. يقال: لأخبرن خبرك أي لأعلمن علمك. لسان العرب، ج4، ص227.

بالإسناد في الجبل، والاستبداد بذلك العمل، وكان ذلك سبب الكسرة الخاصة بالبلد، الحاصّة[1] أجنحة المدد، وبقيت الرّعية على نصرة البلد حِراصًا، ورجت أن تجد له من أسر الحصر خلاصا.

فأعادت على الوالي رغبتها تلك، واقترحت من بَنِيه من يَنظِم ذلك السلك، فأبى غير ذلك المشؤوم، وأخرجه ثانية لمناجزة الرّوم، فلما رأوه تشاءموا بوجهه، وهمّوا بنجهه[2]. وطلبوا من الوالي غيره فما أسعفهم، وأعادوا الرّغبة عليهم فعنّفهم، ولمّا برز بهم/33/هذا القائد الواهي ركنه، المجرّبُ شؤمُه وجبنُه، مشى بأنكد جدّ، وأنكل حد[3]، ودنا من العسكر في العدد الأكثر، والجمع الأوفر، ونذر بهم الرّوم فركبوا تلقاءهم، وقصدوا لقاءهم.

فلمّا أطلّوا من بعيد ولاّهم قفاه، وأطاع مصرّفيه الجبن والشؤم فما استوقفاه، وفرّ قبل لف الخيل بالخيل[4]، وجرّ على المسلمين ذيل الويل، فإنهم بفراره انتقضت عراهم، وأعداهم ما عراه من الوهل[5] فعراهم، واتبعهم النصارى فقتلوا منهم مقتلة كبيرة، وأمطروا عليهم من البلاء سحبًا غزيرة[6].

---

(1) الحاصّة: هي العلة التي تحصّ الشعر وتذهبه. والحصّ: حلق الشعر، حصّه يحصّه حصا. وقيل: هو إذهاب الشعر عن الرأس بحلق أو مرض. ويقال: طائر أحص الجناح، أي منتوف الجناح. وتحصّص الحمار والبعير سقط شعره، والحصيص اسم ذلك الشعر. والحصيصة ما جُمع مما حُلِق أو نتف. لسان العرب، ج7، ص14.

(2) جناس ناقص بين " وجهه ونجهه ".

(3) جناس ناقص بين " جدّ وحدّ ".

(4) كناية عن الحرب ولقاء العدو.

(5) الوهل: الفزع. وهل وهلا: ضعف وفزع وجبن، وهو وهل، ووهّله: أفزعه. ووهل يوهل فهو وهل ومستوهل. ووهلت إليه إذا فزعت إليه، ووهلت منه إذا فزعت منه. والوهلة: الفزعة. لسان العرب، ج11، ص734

(6) استعارة مكنية فيها تشبيه للبلاء النازل على أهل البادية بالأمطار الغزيرة.

ذكر ابن عبّاد ومصيره إلى ارتداء الخزي بالارتداد

هذا الرجل[1] كانت له في الجزيرة نباهة، وعند رعيتها وجاهة، وما عرفت منه سفاهة ولا جربت عليه إلاّ مروءة ونزاهة، إلى آن برئ منه القرآن[2]، وانسلخ من آياته فأتبعه الشيطان[3]، وخرج إلى الروم مرتدًا وادّعى أن يرهب لهم حدّا، ودعا للرحمن من الولد ما تكاد تخر له الجبال هدّا[4]، وطلب منهم إمارة البلد، والتزم إسلامه إليهم في أقرب المدد.

فتلقوا بالقبول ردته وإرادته، وعاونوه على الشقاوة التي محقت سعادته، فطلب منهم للناس عهودا بالأمان، وكتبا بالإحسان، وصدّر كل كتاب/34/ببسملة، وأودعها ما يليق بكل شخص من مسألة، وخرج بها وقلبه على جرمه جريء، والله من عمله بريء، وجاء حيث جال بالتلابيس الإبليسية، ودعا الناس بالدعاية المسيحية، وأعدى القلوب مرضا فأزالها عن الهيئة الصحية، وأقبل بالكتب إلى تلك الكتب فانهالت وانهال عارض شره

---

(1) تدعوه المصادر القطلانية Benahabet، وتذكر أنه كان عاملا على بلانسة أحد الأقاليم الخمسة عشر التي تتكون منها ميورقة الإسلامية. وقد ارتد عن دينه ودخل في خدمة الملك المسيحي خايمي الأول وطلب منه راية وشارة حتى لا يعترضه الجنود المسيحيون، فاستجاب الملك لطلبه، وأرسل معه ضابطين للتأكد من صدق ولائه. وقد ظل هذا الخائن يعمل لصالح النصارى حتى سقطت جزيرة ميورقة في أيديهم. وقد سكتت تلك المصادر عن مصير ابن عباد، ولكنها تحدثت عن حفيدته ليونور ابنة ناصر التي ورثت عن جدّها بلدة الخابية في جزيرة ميورقة وتزوجت من أحد نبلاء قطلونية. ميجيل الكوبير، الإسلام في ميورقة، ص ص70-71.

(2) كناية عن ردّة ابن عبّاد عن الإسلام.

(3) إشارة إلى قوله تعالى: "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين". سورة الأعراف، الآية 175.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدّا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا". سورة مريم، الآيات: 88-89-90.

على تلك الأودية، فسالت وحقق ما كان فيها من الأمل، واستفزّ باسم الله فيها من سبق له الشقاء في الأزل، وقالوا ليس بين الدّينين تضاد، والمسيء من نصادفه وهو عن القبول صاد.

فصالحوا الروم على أداء ما كان يلزمهم، وأمضوا من هذا الرأي ما اتفق عليه أعجزهم وأحزمهم، وفتنوهم بما أظهروا لهم من كرامة يستحل قبولها الضعاف، ويستحلى طعمها وهو السمّ الزعاف، وهذا أعظم بلاء رمي به الناس، وحق به البأس. فإن هؤلاء أعانوا النصارى بالأقوات والعلف، ورفعوا عنهم ما كان أزعجهم وأعجزهم من الكلف، واتخذوا منهم رجالا أنِسُوا منهم الإقبال، فناطوا بهم الآمال، وجلبوا لهم ألطافا، وهزوا منهم أعطافا، فاطمأنت بهم الدّار، وتمكن لهم الحصار. ولولا أنهم هادوهم وهادنوهم، وسكنوا إليهم وساكنوهم، وأمروهم فأطاعوا، وماروهم بما استطاعوا، لانفضوا بسبب الإنفاض من الميرة[1]، وكان إعسارهم بالنفقة موجبا مفارقة الجزيرة[2].

---

(1) الميرة: الطعام يمتاره الإنسان، وهي جلب الطعام للبيع. وهم يمتارون لأنفسهم ويميرون غيرهم ميرا. وقد مار عياله وأهله يميرهم ميرا وامتار لهم. والميّار: جالب الميرة. ويقال للرّفقة التي تنهض من البادية إلى القرى لتمتار: ميّارة. لسان العرب، ج5، ص188.

(2) تذكر الرواية المسيحية أن ابن عباد حين ارتد ودخل في خدمة الملك خايمي الأول، قدم للمعسكر الصليبي عشرين فرسا محملة بالحبوب ولحوم الجديان والدجاج والعنب، وقد حفظت هذه الميرة في أكياس. وظل ابن عباد رفقة من تنصر معه من أهل البادية يزودون المعسكر المسيحي بالمؤن والأغذية طوال فترة الحصار. فكانت هذه الخيانة من أسباب ضياع الجزيرة. ميجيل الكوبير، الإسلام في ميورقة، ص ص70-71.

نظر أهل البلد في بعث النُذُر لتلافي هذا الأمر النُكُر

/35/ولما انتهى إليهم من تلك الموافقة غير الموافق، وعلموا ما تجلبه الرعية إلى النصارى من الأقوات والمرافق، أحسوا بالعذاب الواقع[1]، ويئسوا من الدّواء النافع لهذا السّم الناقع[2]، وقالوا الآن علمنا أن الإسلام مخذول وأن البلد مدخول[3]، وكيف البقاء ومنا الدّاء، وبجيرتنا اجترأ علينا الأعداء، ثم أداروا الرّأي في هذا الخطب الذي يتدارس ذكْرُه، كيف يتدارك أمره؟

فرأوا أن يبعثوا إلى الرعية جماعة من وجوههم[4] تسمعهم الملام، وتنشدهم الله والإسلام، وتعظهم وطاغيتهم[5] الجامح في طلق الغواية، الطامح إلى الرئاسة القاتلة بالسّراية، فخرجت الجماعة المندوبة، وأملها أن تصفو الحالة المشوبة، وتسكن النار المشبوبة[6]، فلقوا في طريقهم من استطلعوه الخبر، واستملوا منه ممالأة من آمن لمن كفر، فقال لهم إنكم منذ

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الطور: " إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع". الآيتان 7و8. وفي سورة المعارج: "سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع" الآيتان 1و2.

(2) جناس ناقص بين " النافع والناقع ".

(3) الدَّخَلُ: ما داخل الإنسان من فساد في عقل أو جسم، وقد دَخِل دخلا ودُخِل دخلا فهو مدخول أي في عقله دخل. والدَّخَلُ: العيب والغش والفساد. وداء دخيل: داخل، وكذلك حبّ دخيل. وقوله تعالى: "ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة". أي لا تتخذوا أيمانكم غشا بينكم وغلاّ وخديعة ومكرا. والمدخول: المهزول والدّاخل في جوفه الهزال. لسان العرب، ج11، ص 241.

(4) كناية عن موصوف، وهم الرجال الأعيان الذين لهم صيت ونفوذ وكلمة مسموعة.

(5) يريد ابن عباد السابق الذكر.

(6) شبّ النار والحرب: أوقدها، يشبّها شبّا وشبوبا. وشبّت النّار تشبّ شبّا وشبوبا فهي مشبوبة أي مشتعلة. وشبّة النار: اشتعالها. لسان العرب، ج1، ص 481.

برَزتم من السّور ففي أرض الحرب[1] أنتم سائرون، ولأولياء أهله أنتم مسافرون، فهالهم ما سمعوا، ويئسوا ممّا فيه طمعوا، وهمّوا بالانصراف، وقالوا لا تلافي لما سبق القدر أن يكون سبب التلاف.

ثم إنهم قالوا أردنا أمرا، ولا بدّ أن نبلي فيه عذرا، ونبلو منه وفاءً أو غدرا[2]، ومشوا بتلك النية، وانتهوا إلى/36/مجتمع الرّعية فتلقّوهم بأريحية، وحيّوهم أحسن تحية، وقالوا لقد جئتمونا في وقت الحاجة، وقد أنضجنا من الرأي ما لا ينسب إلى الفجاجة[3]، وأردناكم لمباشرته فدعونا من اللّجاجة[4]، إنّا صالحنا الرّوم على شروط، ولابد معهم من عقد مربوط، ونريد أن تحضروا معنا الصّلح، ليكون عقده أوثق وأصح، فقال القوم لهم معشر المسلمين لا تشكوا بعد يقينكم، واتقوا الله في مدينتكم ودينكم، أتخذلون إخوانكم وتولّون عنهم؟ وتتولّون الكافرين ومن يتولّهم فإنّه منهم[5]، فكيف ترضون بهذه القطيعة الفظيعة، أولا ترون ما يؤول الأمر إليه من الخطوب الشنيعة، فقالوا لابد من مشيكم معنا مكرمين إن أطعتم، أو مكرهين إن تمنعتم[6].

ثم حملوهم مستحلّين لظلمهم، وقالوا للملك هؤلاء في حكمك

(1) ويقال دار الحرب ويراد بها بلاد المشركين الذين لا صلح بينهم وبين المسلمين. وهو يقصد أن أهل البادية في الجزيرة قد دخلوا في طاعة النصارى ولم تبق سوى مدينة ميورقة دار إسلام.

(2) طباق الإيجاب بين " الوفاء والغدر ".

(3) يقال: رجل فَجْفَجٌ وفُجَافِج وفجفاج: كثير الكلام والفخر بما ليس عنده. وقيل: هو الكثير الكلام والصّياح والجلبة. وقيل: هو الكثير الكلام بلا نظام. والرجل الفجفاج: المهذار المكثار من القول. لسان العرب، ج2، ص 340.

(4) جناس ناقص بين " الفجاجة واللّجاجة ".

(5) إشارة إلى قوله تعالى: "يأأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين". سورة المائدة، الآية 51.

(6) مقابلة اثنين لاثنين بين " مكرمين ومكرهين وأطعتم وتمنّعتم ".

والبلد في حكمهم، فحبسوا في خباء، وحبوا شرّ حباء[1]، وكان فيهم خطيب المدينة[2] فأمروا جميعا بالكلام مع أهلها، وأن يعرض عليهم الخروج بقطيعة يقرّرون على بذلها، فمشوا إلى البلد المحصور، ووقفوا موقف القصور، ونادوا من وراء السّور، وقرعوا للإصاخة[3] بابا، وتكلموا وانتظروا جوابا، واستومرت المدينة قبل الاقتراع فصمتت[4] وما حصل رضاها، واقتضيت التمكين من نفسها فمنعت من اقتضاها.

وعاد المذكورون وما سمح لهم بلفظة، ولقوا من/37/النصارى أشدّ غلظة، وقالوا لهم أنتم لحنتم لأهل البلد بما شجّعهم بعد الجبن، وقوّاهم في حال الوهن، وكان حَرَدُهُم[5] على الخطيب أشد، وظنوا أنّه لو أراد لردّ عن

(1) جناس ناقص بين " خباء وحباء ".

(2) هو أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن هارون العبدري، من أهل ميورقة. روى عن أبي عبد الله محمد بن خلف البنيوني، وأبي عبد الله بن المعز، وأبي محمد بن حوط الله، وأبي عبد الله بن غيداء وغيرهم، وروى عنه جمهور أهل بلده. كان مقرئا مجودا مشاركا في علوم العربية. تصدر لإقراء القرآن وتدريس النحو وخطب بجامع مدينة ميورقة نحو عشرين سنة. استشهد يوم الاثنين 14 صفر 627 هـ حين اجتاح النصارى مدينة ميورقة. ابن الأبار، التكملة، ج3، ص85. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس/ القسم الأول، ص12.
هذا وتشير ذات المصادر إلى خطيب آخر كان يناوب في الخطبة أبا مروان المذكور، يتعلق الأمر بأبي الحسن المطرقة علي بن أحمد العبدري، من أهل ميورقة روى عن ابن حوط الله وابن شعبة والشكاز وغيرهم. رحل حاجا فسمع من جماعة وعاد إلى بلده وأقرأ به القرآن وناوب في خطبة الجمعة أبا مروان الخطيب السالف الذكر. توفي مأسورا في نفس اليوم الذي توفي فيه والي المدينة أبي يحيى التنملي أي بعد خمسة وأربعين يوما من تاريخ سقوط مدينة ميورقة في يد النصارى. ابن الأبار، نفس المصدر، ج3، ص235. ابن عبد الملك، نفس المصدر، ص183.

(3) أصاخ له يصيخ إصاخة: استمع وأنصت لصوت. وفي حديث يوم الجمعة: وما من دابة إلا وهي مصيخة أي مصغية ومستمعة منصتة. لسان العرب، ج3، ص 35.

(4) مجاز مرسل لأن المدينة لا تصمت بل أهلها هم الذين يصمتون.

(5) الحرد: الغيظ والغضب. ورجل حرد وحارد: غضبان. يقال: حرد الرجل إذا اغتاظ فتحرش بالذي غاظه وهمّ به. قال الشاعر:

التوقف وصدّ، فهمّوا به وبهم مرارا، وفرّ منهم من استطاع فرارا، وأعيد الخطيب إلى الكلام ثانية وثالثة، وحذر من أيدي الشرك عائثة عابثة[1]، وقال للوالي إن قبلت نصيحتي فاقبل من الكافر ما طلب، وسلّم الناس فكأن بالشر قد بلغ وبالشرك قد غلب، فأمره بأن يخزن لسانه، ولا يسمع أحدا ما أبانه، ولو علم الناس خفة تلك القطيعة المضروبة، لأوشك أن يغلبوه على السلم المطلوبة، لكن كانت ملحمة كتبها الله على أولئك الخلق، وقولا حقّ عليهم بمشيئة الواحد الحق، وصار من بقي من أولئك الأشياخ مع الخطيب في حكم الرّق.

=

أســـود شرى لاقـــت أســـود خفيـــة تســـاقين ســـمّا كلهـــن حـــوارد

لسان العرب، ج3، ص145.

(1) جناس ناقص بين " عائثة وعابثة ".

رجع الحديث إلى أمر الحَصْر

وما أخطأ أهل البلد بإصابة القدر من النَصْر

ولم يزل الأمر في شدّة، والرّعية في رداءة وردّة، والسّور يخرق بكل هدّة[1]، وبلاء الضرب يُبلى منه كل جدّة، حتى قنط الرّاجي، وكان باليأس من النجاة التناجي، وحُذِرَ الهول وهال المحذور، واتسعت النُّقُوب وضاقت[2] الصّدور، وتجلد المسلمون للخطب،/38/وأخذوا من جهتهم في النقب، فخبطوا في ظلمة الأرض خبط عشواء[3]، وصادفوا مغارات الرّوم فشنّوا فيها الغارة الشّعواء، وقتلوا عدّة من رجالهم، وصدّوهم عن مجالهم.

وقعدوا هنالك مقاعد للسّمع[4]، وحكموا في جناية النباش بعقوبة القطع، ورتبوا رجالا على كل فوهة، وأقاموا هنالك في أهبة غير ذات أبّهة، ولو أنّهم مُتِّعوا بالقوت لمنعوا، ولو حفظوا لما ضيعوا، وما زالوا هناك في ضيق من العيش والقرار، وعضاض[5] مع ضباع ذلك الوجار[6]، حتى غلبهم

---

(1) جناس ناقص بين " ردّة وهدّة ".

(2) طباق الإيجاب بين " اتسعت وضاقت ".

(3) تضمين لقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلّقته الشهيرة:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرم

الزيات أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ص64.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: "وإنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا". سورة الجن، الآية 9.

(5) عضاض، بالكسر: يقال فلان عضاض عيش أي صبور على الشدة. واشتد عضاض القوم أي اشتد عيشهم. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص582.

(6) الوجار: والجمع أوجرة ووجر، وهو جحر الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك، وهناك من يقصره على الضباع فقط. جاء في حديث الإمام علي كرم الله وجهه: وانجحر انجحار الضبة في جحرها والضبع في وجارها. لسان العرب، ج5، ص280.

الرّوم فافترسوا ذيابهم[1]، لا بل احترشوا ضبابهم[2]، وتمَ لهم الخلوص إلى السّور، ووجب مهر المحنة بإرخاء تلك الستور.

وكان أحد قسّيسيهم[3] قد حلف وهو مصرّ على مأثمه[4]، مستسرّ في مجثمه[5]، أنه لا يبالي من الاختفاء حتى يظهر البلاء، ولا يصعد حتى ينزل[6] البناء، فزعموا وعزموا[7]، وعدموا المدافع فنقبوا ودعّموا، وعلم المسلمون أن النقب قد تمكن، والإجهاز على جرمح السّور قد أمكن، فاتخذوا بنية يقف عليها المقاتلة، وبنوا سورا يخلف الأوّل إذا أودت به علّته القاتلة، وفرغ النصارى من أسباب هذه، وعلموا أن بأيديهم فسخ عقده، وأنّه قنص علق به فخّهم، وعقيرة تطاولت إليها فسحهم، فركبوا السّلاح، وقربوا للكفاح، واصطفوا على الخندق، وأخذوا من البلد بالمخنق.

---

(1) استعارة تصريحية حيث شبّه المؤلف جند الوالي بالذئاب والضباب.

(2) حرش الضب يحرشه حرشا واحترشه وتحرشه وتحرش به أي صاده، وهو أن يحك الرجل جحر الضب فإذا أحسه حسبه ثعبانا فيخرج إليه ذنبه فيصطاده حينئذ. لسان العرب، ج6، ص280.

(3) كان الملك خايمي الذي اتخذ الصليب شعارا لحملته ضد مسلمي جزيرة ميورقة، قد استدعى كبار الأحبار والرّهبان للمشاركة في هذه الحملة. وكان هؤلاء الرهبان وعلى رأسهم الراهب الدومنيكي ميجيل فايرا، وأحبار الكنيسة برئاسة أسقف برشلونة والمندوب البابوي يلهبون مشاعر المقاتلين ويحثونهم على الصمود والقتال.
Clements Markham. The Story of Majorca and Minorca ; p26.

(4) جناس ناقص بين " مأثمه ومجثمه ".

(5) جثم الإنسان والطائر والنعامة والخِشف والأرنب واليربوع يجثم جثما وجثوما فهو جاثم: لزم مكانه فلم يبرح أي تلبّد بالأرض. والجاثم: البارك على رجليه كما يجثم الطير. قال تعالى: "فأصبحوا في ديارهم جاثمين"، أي أجسادا ملقاة في الأرض، وقيل أصابهم البلاء فبركوا فيها فماتوا باركين. والجثوم: الأرنب لأنها تجثم ومكانها مجثم. لسان العرب، ج12، ص 82.

(6) طباق الإيجاب بين " يصعد وينزل ".

(7) جناس ناقص بين " زعموا وعزموا ".

ولما فرغوا من تعبئتهم، نادوا من يخرج/39/لتلبيتهم، فخرج الوالي بنفسه، وضمَ إليه من اختار من أبناء جنسه، وجاءه عمُ أبي الملك القومط نونة[1] فسلّم، وأذن له في الكلام فتكلّم، وقال أنت من خيار قومك، وما أقل من نراه يُلِمّ بلومك، فأسلم البلد وسلِّم أهله، ودع وعر الأمر واركب سهله[2]. فقال وما الذي رأيناه، حتى نبيح ما حميناه، ونبيد ما حويناه، قال إنك إن جعلت الإباية جوابا، ولم تر في هذه الصفقة[3] إيجابا، فإنّا نأخذ البلد عنوة، ونغتنمها غزوة[4]، وآية ذلك أن في هذه الساعة يسقط السّور، وينكشف السرّ المستور.

ثم أشار بإضرام اللّهب، فيما كان تحت السّور من الخشب، فظهرت في الوقت علامتها الصادقة، واستطارت من باطن الثرى تلك الصاعقة[5]،

(1) ورد اسمه في الوثيقة اللاتينية العربية حول تقسيم جزيرة ميورقة المؤرخة برجب 629هـ/ ماي 1232م. وفي هذا النص بيان كامل بأسماء النبلاء والزعماء الذين اشتركوا مع الملك خايمي الأول في غزو الجزيرة والذين أقطعهم أجزاء من أرضها مكافأة لهم، وبنصيب كل واحد من هذه الأجزاء. وقد جاء ذكره في الوثيقة تارة باسم القمط نونوا وتارة نونة، والقمط هو الكونت أي الأمير. عصام سيسالم، جزر الأندلس المنسية، الملحق الثاني، ص 615 وما بعدها.

(2) طباق الإيجاب بين " الوعر والسهل ".

(3) يستفاد من كلام ابن عميرة أن الغزاة قد عرضوا على المسلمين صفقة مقابل تسليم الجزيرة ولكن الأمير أبا يحيى التنملي رفضها وقرر المقاومة. ولكن الرواية المسيحية تذكر أن الأمير المسلم هو الذي أرسل إلى الملك خايمي سفارتين يعرض عليه فيهما إجراء المفاوضات من أجل وقف القتال. واستجاب الملك لطلبه وأوفد إليه ممثليه، ولكن الشروط التي عرضها الأمير المسلم من أجل التسليم، وإن كانت قد لقيت قبولا لدى الملك خايمي، فإن كبار القادة والنبلاء والأحبار رفضوا عرض التسليم وشروطه بإصرار. ميجيل الكوبير، الإسلام في ميورقة، ص80.

(4) جناس ناقص بين " عنوة وغزوة ".

(5) صعق الإنسان صعقا: غُشي عليه وذهب عقله من صوت يسمعه كالهدّة الشديدة. والصاعقة الموت وصيحة العذاب. والصاعقة: القطعة من النار التي تسقط من السماء في رعد شديد لا تأتي على شيء إلا أحرقته وهذا ما يريده المؤلف هنا. لسان العرب، ج10، ص 198.

وأظلم الجو من ذلك الإسراج، وسقط السّور ومعه ثلاثه من الأبراج[1]، وزحف الرّوم إلى القتال، وماج عسكرهم بالأهوال، ووقف المسلمون على بنيتهم، بصدق من نيتهم، فأغنوا غناء الكرام، واستسهلوا صعب ذلك المقام.

ولم تزل الكرّات تتمادى، والجراح تتهادى، والحديد للحديد قارع، والسّيف بين الفريقين واصل وفيهما قاطع، حتى حجز بينهما المساء[2]، وقد أغامت بمثار النّقع السّماء، وباكروهم القتال، وخلطوا بالرِّجال الرجال، واستمرّ ذلك يوما بعد يوم، وأفنت الحرب/40/قوما إثر قوم، وخبايا البلايا تبدو، والمعاول في المشيد تشدو، ونعرات المجانيق بركائب الجلاميد تحدو.

هذا ونوء الشتاء قد أمطر، والخصر[3] بالبرد الذي أفرط صائم ما أفطر، حتى ضنيت[4] الجسوم، وكثرت الكلوم، وكلّ المسلمون وتكالت الرّوم، ووصلوا إلى نقب السّور الجديد، وصالوا عليه بيأس الحديد الشديد،

(1) في يوم السبت 13 محرم سنة 627هـ/ 1 ديسمبر 1229م، سقطت الأبراج الغربية، وأصبح الطريق ممهدا لدخول المدينة، وفي 4 ديسمبر تمكن الغزاة من فتح ثغرة كبيرة في الأسوار، ولكن القوات الإسلامية جابهتهم بقوة وردتهم على أعقابهم، مما أغضب الملك خايمي ودعا جميع الفرسان وأمرهم بمواصلة القتال حتى النهاية، وقد عاهدوه على ذلك. ميجيل الكوبير، الإسلام في ميورقة، ص 85.

(2) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلّف المساء بالشيء المادّي الذي يقوم بوظيفة الحجز كالحائط والسدّ وغيرهما.

(3) الخصر: البرد يجده الإنسان في أطرافه، وإذا كان معه جوع فهو خرص. والخصر البارد من كل شيء، يقال: خصرت يدي، وخصر يومنا: اشتد برده. لسان العرب، ج4، ص243.

(4) الضّنى: المرض. ضَني الرجل يضنى ضنًى شديدا إذا كان به مرض مخامر. والضّنى: السّقيم الذي قد طال مرضه وثبت فيه. وأضناه المرض أي أثقله. وتضنّى الرجل إذا تمارض. ورجل ضَنًى وامرأة ضنًى، ويستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع لأنه مصدر. لسان العرب، ج 14، ص 486.

والناس في الأمر المريج غير المريح[1]، وهم من الصريخ على اليأس الصريح[2]، فوقع البناء الذي نقب، وحان الأمر الذي كتب، وتكلف المسلمون ليلتهم تلك بناء ما سقط، والجهد فيهم قد حكم وقسط.

وأصبحوا للقتال الشديد، والبلاء العتيد، وكل من الفريقين يكرّ ويُقدم[3]، والمسلم يبني والكافر يهدم[4]، حتى إن الرجل يضع الحجر فيؤخذ من يده، ويريد ضرب البناء فيقع الضرب في جسده، فأودى الحيُّ والجَمَاد[5]، وأسرع في الكائنين الفساد، وطال بالسيف الجدال والجلاد.

(1) جناس ناقص بين " المريج والمريح ".

(2) جناس ناقص بين " الصريخ والصريح ".

(3) طباق الإيجاب بين " يكرّ ويقدم ".

(4) مقابلة اثنين لاثنين في المسلم يبني والكافر يهدم.

(5) طباق الإيجاب بين " الحي والجماد ".

وصف ما جرى من الرأي المدار

عندما شامه الناس من بوارق البوار[1]

ولما رأوا أن الخطب قد أسرف، والبلد على الهلاك قد أشرف[2]، وما آلت الحال إليه من الهزل والأزل[3]، والعجز عن شبّ وقود الحرب بالحطب الجزل، ولم يشكّوا أنّ ما هم فيه فبالعطب يقضي، وإلى اليأس/41/من السّلامة يفضي، كلّموا الوالي في بقايا الأنجاد أن يُحصَرُوا ويُحصَوا، ويُطعَموا ويُكسَوا، ويفرغوا للقتال، ويكفوا ما عداه من الأعمال.

فاستقبح هذا الرأي الحسن، وخشي أن يستسلف منه بعض ما أوعى واختزن، فجرى بينه وبينهم كلام أحرجه، وملام إلى الخوف على نفسه أخرجه[4]، فدعا أحد كبراء قومه وخرج له عن التدبير، وأقعده مقعد الأمير، فاختار الرجل ألف راجل لذلك المعنى، ولو أتي غنى الوالي لكان قد أغنى، وطلب منه سلف مال وطعام يصلح لهذا الغرض، فما أجاب إلى القرض دون قبض العوض.

فتخلّى الرّجل عمّا نيط به، وردّ الأمر إلى السّاعي في عطب الناس

---

(1) البَوَارُ: الهلاك. بار بورا وبوارا. ورجل بور ورجلان بور وقوم بور وامرأة بور، ومعناه هالك. والبائر الهالك. وقد بار فلان أي هلك. وأباره الله: أهلكه. وفي الحديث: فأولئك قوم بور، أي هلكى. وفي حديث أسماء في ثقيف: كذّاب ومبير، أي مهلك يسرف في إهلاك الناس. ودار البوار: دار الهلاك. لسان العرب، ج4، ص 86.

(2) جناس ناقص بين " أسرف وأشرف ".

(3) جناس ناقص بين " الهزل والأزل ".

(4) إن رفض والي ميورقة للخطة المعروضة عليه في الدفاع عن المدينة كان سببه البخل وخشية الإنفاق حسب ابن عميرة، وهذه الصفة الذميمة التي اشتهر بها الوالي أكدها ابن سعيد أيضا بقوله: إلى أن أخذ النصارى ميورقة من أبي يحيى بن عمران التنملي، وكان بخيلا غير حسن التدبير سامحه الله. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص467.

وعطبه، ومنع من جمع الرجالة شحًا على النفقة، وصيانة للإثمد[1] بإتلاف الحدقة، وكان إذا تكلّم معه في أمر الناس، وإشرافهم على اليأس، يخبر بقرب الفرج، ويعد بسلامة البلد والمُهج، اتكالا على والي إفريقية[2] أن ينهد[3] لإغاثته، فانظر إلى هذا العقد ورثاثته والقول وغثاثته[4]، وقيل إن كتاب هذا المنجد جاء بعد شهرين من دخول البلد بالسيف، يَعِدُ بالنّصرة عند إقبال زمان الصّيف.

---

(1) الإثمِدُ: حجر يتخذ منه الكحل، وقيل: ضرب من الكحل، وقيل: هو نفس الكحل، وقيل شبيه به. يقال للرّجل يسهر ليله ساريا أو عاملا: فلان يجعل الليل إثمدا أي يسهر فجعل سواد الليل لعينيه كالإثمد لأنه يسير الليل كلّه في طلب المعالي. لسان العرب، ج3، ص105.

(2) هو مؤسس الدولة الحفصية بإفريقية الأمير أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر الهنتاتي، ولد بمراكش سنة 599هـ وبويع بالقيروان في رجب سنة 625هـ. وفي سنة 634هـ بويع البيعة الثانية وذكر اسمه في الخطبة واقتصر على لقب الأمير الذي كان لا يريد أن يحمل أي لقب آخر سواه، فاستقل منذ ذلك التاريخ بإفريقية واستبد بشؤونها في أيام الخليفة الموحدي الرشيد بن المأمون. وفي سنة 635هـ وصلت إليه بيعة زيان بن مردنيش صاحب شاطبة، وفتح تلمسان سنة 639هـ، ثم وصلت إليه في السنوات الموالية بيعة سبتة والمرية وإشبيلية وغرناطة. كان من الصالحين والعلماء العاملين، فقيها، أديبا، جمعت دولته من رؤساء العلماء والشعراء وأهل الصلاح ما لم يجتمع لغيره. توفي سنة 647هـ تاركا وراءه سبعة عشر بيتا من المال، ومن الكتب ستة وثلاثين ألف مجلد. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص155-157.

(3) نهد ينهد إلى العدو نهودا: نهض. والمناهدة في الحرب: المناهضة. نهد القوم لعدوّهم إذا صمدوا له وشرعوا في قتاله. والنّهْدُ: العون. وطرح نهده مع القوم: أعانهم وخارجهم. لسان العرب، ج3، ص 430.

(4) جناس ناقص بين " الرّثاثة والغثاثة ".

فِرَارُ ولَد الوالي

وكان له وَلد ينافِس بعض إخوته[1]، ويحسده/42/على مكانته عند الوالد وحظوته، وكان يُدلّ بالخلق الرّضي، ويدلي بولادة لم يكن فيها حظ لهذا الحظي، ولم يزل ينطوي من هذا الأمر، على أحرّ من الجمر، ويرصد الغوائل[2] لأبيه، ويخطر بخاطره من المنتصر أمر الشاب الشبيه.

فلمّا رأى حال البلد، وقدّر التشفي من الوالد والولد، ركب جنح الظلام[3]، وارتكب جناح[4] الأثام، وخرج إلى الرّوم فأكرموا مثواه، وذمّوا له أباه الذي أباه[5]، وأصبح الناس من خبره مرتاعين، ولأمر أبيه مُراعين، فأدناهم وجمعهم، وأخذ في البراءة منه معهم، وأخبرهم أنه منذ عقل ما صدرت عنه

---

(1) جاءت الإشارة في المخطوط إلى أبناء وبنات والي ميورقة أبي يحيى التنملي في عدّة مواضع، فمنهم الابن الذي أجلسه والده للأحكام حين احتجب عن الناس وبالغ في الاحتراس خوفا من الجماعة الأندلسية. والثاني وهو هذا المرتد الذي فرّ إلى النصارى. والولد الثالث ابن الستة عشر ربيعا الذي قتله النصارى بين يدي والده وهو تحت التعذيب تنكيلا له وإرغاما. والابن الرابع الذي تنصر خوفا من إلحاقه بأخيه. أما البنات فقد صرن في حكم الأسر والرق بعد سقوط ميورقة.

(2) والمفرد غائلة: الحقد الباطن والشر والدواهي. والغيلة: الخديعة والاغتيال. يقال: قتل فلان غيلة أي خدعة، وهو أن يخدعه فيذهب به إلى موضع، فإذا صار إليه قتله وقد اغتيل. والغيلة في كلام العرب إيصال الشر والقتل إليه من حيث لا يعلم ولا يشعر. لسان العرب، ج11، ص 512.

(3) كناية عن فرار ولد الوالي إلى معسكر النصارى في ظلمة الليل.

(4) الجُنَاحُ: الميل إلى الإثم، وقيل: هو الإثم عامة. قال تعالى: "ولا جناح عليكم فيما عرضتم به"، أي الجناية والجرم. وقيل: لا إثم عليكم ولا تضييق. وفي حديث ابن عباس في مال اليتيم: إني لأجنح أن آكل منه، أي أرى الأكل منه جناحا وهو الإثم. لسان العرب، ج2، ص 430.

(5) جناس تام بين " أباه الاسم وهو الوالد وأباه الفعل ".

يمين، كانت ممّا يصدق أو يمين[1].

ثم حلف لهم أن القصة كانت عنه محجوبة، ولو علمها لما أخر عن ولده العاق عقوبة، وبكى حتى أبكى، وتولى من أفلح وتزكّى، ونفى من أضرم نار وَلَهِهِ وأذكى. ومن الاتفاق أن يوم خروجه وقع حجر المنجنيق في مقعد الوالد، فكاد يقتله لولا تأخر الأجل الوارد، فقيل إنّ الولد أطاع غوايته، وعيّن المكان فسوى عليه الرّامي رميته.

(1) جناس تام بين " يمين الاسم وهو الحلف والقسم ويمين الفعل ".

خروج أبي حفص بن شيري من البلد

وتمام الأخبار عن مفارقة روح الإيمان لذلك الجسد

ولما رأى ابن شيري أن العدو قد استشرى، وطمس على/43/ المسلمين طريق البشرى، ولم يشك أن حامل الدّاهية تطلق[1]، وأن المدينة بأكبر الرزايا تُصبَّح أو تُطرق، خرج إلى البادية بنجدة يعدّها، ونصرة يستجدّها، وليسعى في إفساد ما كان بين أهلها وبين النصارى من وصلة قاطعة، وهدنة خارقة غير رافعة، عائدة بكل قارعة. فجمعهم ووعظهم، ومن سِنَةِ تلك الجهالة أيقظهم، وتولّى أمرهم على ألاّ يتولى أحد منهم كافرا، وأن يكون له بقلبه ووجهه منافيا منافرا.

فأجابوه لما شرط، وقبضوا من الرّوم ما كان انبسط، وأجمعوا على الانقطاع من معسكرهم، وقتلوا من كان منهم بين أظهرهم. فأوجس الرّوم منهم خيفة[2]، ورأوا الشدائد بهم مطيفة، وقالوا إن احتبست المدينة، وانقطعت عنّا الميرة المعينة، والبرد قد خشن جانبه، والبحر قد خشي راكبُه، وهدنة الرّعية قد انتقضت، وأيام إرفادها وإرفاقها قد انقضت، فنحن في قبضة الهلك، وطريق النّجاة عويصة السلوك على الخيل والفلك.

ولم يبق إلاّ أن نقاتل البلد[3] بجملتنا، ونصدمه بسيل حملتنا،

(1) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلف الشدائد وعظائم النوائب التي أصابت أهل ميورقة بسبب الحصار المفروض عليهم، بالمرأة الحامل حين يأتيها الطَّلْقُ وهو وجع الولادة.

(2) إشارة إلى قوله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: "فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط". سورة هود، الآية 70. وإلى قوله تعالى أيضا "فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام حليم". سورة الذاريات، الآية 28.

(3) مجاز مرسل لأن القتال لا يكون للبلد بل لأهلها.

ونتساقط على ناره كالفراش[1]، ونوسد[2] على موصَد بابه كلاب[3] الهراش[4]، وإنما هو الظفر أو المنون، وإذا أخذنا البلد فما بعده يهون، وكان هذا يوم الجمعة الحادي عشر لصفر، (11صفر 627هـ)، وقد وطن على الموت من أزمع السفر إلى سقر.

فلما كان يوم السبت/44/قاتلوا البلد كما عزموا وزعموا[5]، وملأوا دِلاء البلاء وأفعموا، وساورت اللّيوث المغتالة، وتسوّر مواضع الهدم الرّجالة، وكان يوما أيأس من السلامة، وأذكر بهوله هول يوم القيامة[6]، وقاتل أهل الأحد في يومهم وهو الثاني، وتذامروا على التواني، ووسّعوا ما تثلم من تلك المباني، وزحفوا عن آخرهم، وتحملوا الحديد في باطنهم وعلى ظاهرهم، وشدّوا على المشيد فهشموه، وكرّوا على ما دعّموا فأعدموه، وعارضوا من صدّهم فصدموه، ووصلوا القتال بالّليل، وتطاردوا تحته كالسيل، وتطارحوا على البلد رجّالة وعلى الخيل.

---

(1) الفَرَاشُ: دواب مثل البعوض تطير، واحدتها فراشة. وقيل: الفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار. قال تعالى: "يوم يكون الناس كالفراش المبثوث"، شبه الله عز وجل الناس يوم البعث بالجراد المنتشر وبالفراش المبثوث لأنهم إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض. وهو تشبيه تمثيلي شبّه فيه المؤلف حملة النصارى على المدينة بهذه الدواب. لسان العرب، ج6، ص 330.

(2) أوسد الكلب: أغراه بالصيد. لسان العرب، ج3، ص 460.

(3) تشبيه بليغ للمقاتلين النصارى بكلاب الهراش مع حذف أداة التشبيه ووجه الشبه الذي يتعلق بشدّة المقاتلين وإقبالهم على الحرب.

(4) الهراش والاهتراش: تقاتل الكلاب. والهراش والمهارشة بالكلاب وهو تحريش بعضها على بعض. والتهريش: التحريش، وكلب هراش. وفي المثل: إنك لا تهرش كلبا. يضرب لمن يحمل الحليم على التوثب. لسان العرب، ج6، ص363. الميداني، مجمع الأمثال، ج1، ص102.

(5) جناس ناقص بين " عزموا وزعموا ".

(6) كناية عن هول ذلك اليوم ومقدار الخوف الذي تركه في النفوس.

وأصبحوا يوم الاثنين والحمام[1] عابث في تلك المهج الصابرة، والسّهام طائرة إلى القلوب الطائرة[2]، والحمى يمنع ويطرق، والثلم[3] ترقع وتخرق، وغشيهم من الرجَالة أمثال الدّبا، ملأوا الوهاد والرُّبا[4] ، وقيل قد بلغ الماء الزُّبا[5]، وكلّ صارم الجد ونبا. لكنهم ردّوا وأردوا، وصدموا وصدّوا، وأمداد الرّوم في الزيادة، وبإزائهم صبر من المسلمين أكرمهم الله بالشّهادة.

ولما رأوا رجالتهم يعنّون ولا يغنون، ويُدانون بالردّ إذا يدنون، حملوا بالخيول وقد درّعوها، وركضوا الصافنات[6] إلى تلك الصَفاة[7] فقرعوها

---

(1) الحِمام، بالكسر: قضاء الموت وقدره، من قولهم حمّ كذا أي قدّر. والحمم: المنايا، واحدتها حمّة. وقد ورد ذكر الحمام بمعنى الموت في الحديث كثيرا. وحمة المنية والفراق منه: ما قدّر وقضى. يقال: عجلت بنا وبكم حمّة الفراق وحمّة الموت أي قدر الفراق، والجمع حمم وحمام. ونزل به حمامه أي قدره وموته. لسان العرب، ج12، ص 151.

(2) استعارة مكنية شبه فيها المؤلف قلوب الميورقيين بالطائر من شدة ما أصابهم من الرّعب.

(3) ثلم الإناء والسيف ونحوه يثلمه وثلمه فانثلم وتثلم: كسر حرفه. يقال في الإناء ثلم إذا انكسر من شفته شيء، وفي السيف ثلم. والثلمة: الموضع الذي قد انثلم، وجمعها ثلم، وقد انثلم الحائط وتثلم. والثلمة: الخلل في الحائط. لسان العرب، ج12، ص 78.

(4) طباق الإيجاب بين " الوهاد والربا ".

(5) الزبا جمع زبية: هي الحفرة تحفر للأسد إذا أرادو صيده. وأصلها الرابية يعلوها الماء، فإذا بلغها السيل كان جارفا مجحفا. وهو مثل يضرب لما جاوز الحد. الميداني مجمع الأمثال، ج11، ص 124.

(6) الصافنات: الخيل. جاء في القرآن الكريم: "إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد" سورة ص الآية رقم 31. وصفنت الدابة تصفن صفونا: قامت على ثلاث وثنت سنبك يدها الرابع. وصفن الفرس إذا قام على طرف الرابعة. وصفن يصفن صفونا: صفّ قدميه. لسان العرب، ج13، ص248.

(7) الصفاة: الصخرة الملساء. وقيل: هي الحجر الصّلد الضخم الذي لا ينبت شيئا، والجمع صفوات وأصفاء وصفي، يقال: لا تُقرع لهم صفاة أي لا ينالهم أحد بسوء. والصّفا اسم أحد جبلي المسعى بالحرم المكي الشريف. لسان العرب، ج14، ص 464.

وفرعوها[1]. وتقدم أحدهم فأقحم فرسه في تلك الثلمة، وأضرم قبسه في تلك الظلمة، وكان/45/على الفرس دِرعان غديرهما[2] يبرد حرّ الطعان، وحديدهما يجدع مارن المُرّان[3]. فنكل عنه الناس وانتقضت الأساس، وحقّ اليأس، ثم دخل ثان وثالث، وحدث معضل واعضل حادث، وخلص الرّجالة إلى السّور المتشعث فتمكنوا من هدمه، وصدقهم الشيطان في زعمه، ونفذ حكم الله ولا معقب لحكمه[4].

ولاقوا في أول الشارع من كرام المسلمين جماعة، حبسوهم هنالك ساعة، وثبت معهم الوالي زمنا، وأبلى بلاء حسنا، ودخل اللّعين ابن عبّاد، المحتقب من ردّته شرّ عتاد، فعدل بهم عن تلك الطريق إلى أخرى، وتمّت بقضاء الله البطشة الكبرى، ورجفت الرّاجفة[5]، وجالت في البلد الخيول الجارية بل السّيول الجارفة[6]، وذهبوا بتلك النضارة، وأحالوا السيف على المقاتلة والنظارة.

---

(1) جناس ناقص بين " قرعوها وفرعوها ".

(2) الغدير: مستنقع الماء ماء المطر، صغيرا كان أو كبيرا. والغدير: السيف، على التشبيه، كما يقال له اللّج. والغدير: القطعة من النبات، على التشبيه أيضا، والجمع غدران لا غير. لسان العرب، ج5، ص 9.

(3) المارن: الأنف، وقيل: طرفه، وقيل: المارن ما لان من الأنف، وقيل: ما لان من الأنف منحدرا عن العظم وفضل عن القصبة، وما لان من الرمح. والمرّان، بالضم: الرماح الصلبة اللدنة، واحدتها مرّانة. وقيل هو نبات الرّماح. لسان العرب، ج13، ص403.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: "أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب". سورة الرعد، الآية 41.

(5) إشارة إلى قوله تعالى: "يوم ترجف الراجفة". سورة النازعات الآية 6.

(6) جناس ناقص بين " الخيول والسيول، والجارية والجارفة ".

فكم ثغرٍ[1] كلح[2] بعد الابتسام، ورضيع فُطِم بالحسام، وغرٍ[3] ما جرى عليه القلم[4]، سال بجاري دمه اللّقم[5]، وأعزل وجاه رامح، وجزع فاجأه بالقرح قارح، ومصونة عُفر جبينها، وحامل تبعها في إفاتة الحياة جنينها، ومطرت سحب الدماء سحابة ذلك اليوم، وسميت السابحات بالسّبح الذي هو بمعنى العوم، وقطعوا الوالي عن قلعة البلد[6]، وفاجأوه وهو في عصبة قليلة العدد، فدخل أحد الدّيار، وأحاط به شرذمة الكفار، ودخلوا إليه واكتنفوه، أنكروه ثم عرفوه[7]،/46/وسأل حضور القومط نونة فحضره في مجلسه، وسار معه إلى محبسه[8].

---

(1) الثَّغْرُ: الفم، وقيل: هو اسم الأسنان كلها ما دامت في منابتها قبل أن تسقط، وقيل: هي الأسنان كلها كنّ في منابتها أو لم يكنّ، وقيل: هو مقدّم الأسنان. وثَغَرَهُ: كسر أسنانه. وثُغِرَ الغلام ثغرا: سقطت أسنانه الرواضع فهو مثغور. لسان العرب، ج4، ص 103.

(2) الكُلُوح: تكشّر في عبوس. وقيل: بُدُوّ الأسنان عند العبوس. كلح يكلح كلحا وكلاحا وتكلّح. والكالح الذي قد قلصت شفته عن أسنانه نحو ما ترى من رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان وتشمّرت الشفاه. لسان العرب، ج2، ص 574.

(3) الغِرّ، بالكسر: الشاب الذي لا تجربة له، والجمع أغرّاء وأغِرّة، والأنثى غرّ وغرّة وغريرة، ورجل غرّ وغرير أي غير مجرّب. والغِرّة الجارية الحديثة السن التي لم تجرب الأمور ولم تكن تعلم ما يعلم النساء من الحب. قال الشاعر:

إن الفتـــــاة صـــــغيرة غـــــرّ فـــــلا يسرى بهـــــا

في حديث ابن عمر: إنك ما أخذتها بيضاء غريرة، أي هي الشابة الحديثة. لسان العرب، ج5، ص16.

(4) جناس ناقص بين " القلم واللقم، وقد تمّ بتغيير مواقع الحروف بين الكلمتين ".

(5) اللقم: معظم الطريق أو وسطه. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص1045.

(6) يريد القصر المطل على البحر فوق تلّة عالية، وهو قصبة المدينة وقلعتها الحصينة داخل الأسوار وكان آخر ما استولى عليه الغزاة في المدينة. عصام سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص430.

(7) طباق الإيجاب بين " أنكروه وعرفوه ".

(8) يستفاد من رواية ابن عميرة أن والي المدينة أبا يحيى التنملي قد فوجئ مع عدد قليل من رجاله خارج القصر حيث ألقي عليه القبض في أحد الديار فسيق إلى محبسه. وهو عكس ما تذهب =

هذا والحدمة[1] محرقة، والحطمة مستغرقة،(والأعضاد تُنصَف، والأعضاء تُقصَف، والصدور تشهق)[2]، والنفوس تزهق، والهام بشادخ الصّخر تحصب، والذوائب بقاني الدّم تخضب. واحتبست القلعة بمن فيها من الخلق، ورجوا أن يخرجوا عن حكم أهل البلد في القتل والرّق، وجاءهم ملك أرغون فوعدهم بالإحسان، وكتب لهم بالأمان، واشترطوا النفقة عليهم حتى يظعنوا بسلام، ويلحقوا ببلد الإسلام.

ثم تُؤوّل عليهم في الإيمان، وبيعوا بسوق الهوان، وجُمِع الأسارى فامتلأت بهم الأرض، وكأنما جمعهم العرض، مُولهون حيارى، سكارى وما هم بسكارى[3]، والنّساء في أيديهن الأطفال، والرّجال في أعناقهم الحبال، فمن كبير يُحرم القوت ولا يُرحم[4]، وصغير[5] يستطعم أمّه وأين المطعم، وفعل الحال للماضي ينسي، والبطون على الطوى تصبح وتمسي[6]، والحياة كلا حياة، وذوات النعمة عدن ذاويات.

=

إليه الرواية المسيحية القائلة بأنه كان محاصرا داخل القصر فأرسل إلى الملك خايمي الأول لمفاوضته في التسليم، ثم وقع في الأسر بعد اقتحام الغزاة للقصر. ألبارو كامبانير، تخطيط تاريخي لجزر البليار، ص 188.

(1) حَدَمَةُ النار: صوت التهابها وشدة احتراقها. يوم محتدم: شديد الحرّ. والاحتدام: شدّة الحر. احتدم صدر فلان غيظا وتحدّم: تحرّق. لسان العرب، ج12، ص 117.

(2) كتبت هذه العبارة من طرف الناسخ في الهامش وليس في المتن.

(3) إشارة إلى قوله تعالى في وصف الساعة: "يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد". سورة الحج، الآية الثانية.

(4) جناس ناقص بين " يحرم ويرحم، وقد تمّ بتغيير مواقع الحروف بين الكلمتين ".

(5) طباق الإيجاب بين " كبير وصغير ".

(6) طباق الإيجاب بين " تصبح وتمسي ".

وكان جَمْدُ البرد على نقيض وقدة الحزن، وكانون الثاني يثني على غير الكنّ[1]، وليس على القوم إلا ما يُواري، وقد كبا الزند الواري، وتفقأت القلع السواري، فجاءهم من الأجل ما كانوا يريدون، ومات منهم في تلك الأيام مثل من قُتِل أو يزيدون[2].

وقيل إن القتلى حين جمدت بسفك دمائها الصّبية، وأنتنت جثثها/47/ بفقد أرواحها الطيبة، جمع النصارى من القتيسين أكبَرُهُمْ، وذكّرهم بنعمة الله التي ليست في الآخرة تذكرهم، وشرع من عند نفسه ما يقضي العجب من قائله، وقال من أخرج من البلد قتيلا فله مثل أجر قاتله، وأمر الملك بإحصائهم فبلغوا أربعة وعشرين ألفا، قتلوا على دم واحد رضًّا[3] وحطما وقصفا.

---

(1) الكنّ والكنّة والكنان، بالكسر: وقاء كل شيء وستره. والكنّ: البيت أيضا. والجمع أكنان وأكنة. والكن: ما يردّ الحرّ والبرد من الأبنية والمساكن. والكنّ: كل شيء وقى شيئا فهو كنّه وكنانه، والفعل من ذلك كننت الشيء أي جعلته في كنّ. وكنّ الشيء يكنّه كنّا وكنونا وأكنّه وكنّنه: ستره. لسان العرب، ج13، ص360.

(2) جناس ناقص بين " يريدون ويزيدون ".

(3) الرّض: الدّق الجريش. رضّ الشيء يرضّه رضًا فهو مرضوض ورضيض: كسره، ورضاضه: كساره وفتاته. وارتض الشيء: تكسر. لسان العرب، ج7، ص 154.

خبر الوالي بعد انقضاء حربه إلى أن صار إلى جزاء ربّه

هذا الرجل كان بالجزيرة قد استبدّ بإمارتها، واحتوى على فلاحتها وتجارتها، وعني بجمع المال الجمّ، ولم يخرجه في وجه من وجوه البرّ والإثم، وفارق شهواته غير هذه الشهوة[1]، وظن أنه جمع من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة[2]. والنصارى أهل جزاف يقبلون محالا، ويقولون إن المسلمين أكثر أهل الأرض مالا، فلما حصل عندهم لم يشكّوا أن في ورقه وعينه وفاء بوسق مراكبهم، وأن المشاهد منهما والغائب يصل إلى شاهدهم وغائبهم[3].

فقالوا له أين الكنوز، وجوّزوا من كثرتها ما يحكم العقل بأنه لا يجوز، ولم يجدوا له من ذلك العدد الدّثر[4]، إلاّ مقدار الثمن فيما باع مدّة الحصر، فأسلموه إلى العذاب المهين، وظنّوه/48/بالعين عين الضّنين، وجمعوا له عداوة المنع إلى عداوة الدّين. وعاش خمسة وأربعين يوما في

(1) يريد صفة البخل الذميمة التي اشتهر بها والي ميورقة أبو يحيى التنملي وأشار إليها المؤلف في مواضع أخرى من المخطوط.

(2) إشارة إلى قوله تعالى عن قارون: "إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين". سورة القصص، الآية 76.

(3) طباق الإيجاب بين " شاهدهم وغائبهم ".

(4) الدّثْر: المال الكثير، ولا يثنى ولا يجمع، فيقال: مال دثر ومالان دثر وأموال دثر. وقيل هو الكثير من كل شيء قال امرؤ القيس:

لعمري لقوم قد ترى في ديارهم — مرابط للأمهار والعسكر الدّثر

يعني الإبل الكثيرة. وعسكر دثر أي كثير. وفي الحديث: وابعث راعيها في الدّثر أي الخصب والنبات الكثير. لسان العرب، ج4، ص277.

النكال الشديد، والهول المذيب للحديد، وسِيمَ أنواع البلاء في ليله ونهاره[1]، وحمّل من ثقل السطوة به ما لعلّه يخفف من أوزاره[2].

ومن جملة ما طرأ له في هذه الأيام أن حُمِل إلى أحد معاقل الجزيرة وأهله به ممتنعون، وللذب عن حماه مجتمعون، فأُمِر أن يكلّمهم في النزول والتسليم، وأُطْمِع أن يُخفّف عنه من العذاب الأليم، فدعاهم فما لبّوه، وأمرهم بالانقياد فعصوه. فأحضر النصارى له ولدا سنّه ستة عشر عاما، ضربوا بين يديه عنقه تنكيلا له وإرغاما، ثم أحضروا آخر ليقتلوه فتنصّر، وبذلك كفّ عنه قاتله وأقصر.

ثم إنه رُدّ إلى البلد، وأبقِي في العذاب الذي لا بقاء عليه للجلد، فما بضّ[3] لهم بقطرة من البحار المظنونة[4]، ولا أباحهم ما قيل من الأموال المصونة، فقضى العجب من أمره، وتحدّث من شاهده بجميل صبره، ومات

---

(1) طباق الإيجاب بين " ليله ونهاره ".

(2) وهو عكس ما تدّعيه بعض المصادر المسيحية بان الملك خايمي الأول تقبّل استسلام أبي يحيى التنملي بكل مراسيم التكريم في قاعة القصر الكبرى بالمدينة، وقد أمّنه على حياته، ووعد بإطلاق سراحه وكلّف اثنين من النبلاء بمرافقته.

Clements Markham. The Story of Majorca and Minorca ; p34.

هو ادعاء عار من الصحة كذبته إلى جانب الرواية الإسلامية بعض المصادر المسيحية نفسها . وفي مقدمتها ألبارو كامبانير، تخطيط تاريخي لجزر البليار، ص188.

(3) بضّ الشيء: سال. وبض الحسي وهو يبض بضيضا إذا جعل ماؤه يخرج قليلا. وبضت العين: دمعت. ويقال للرجل إذا نعت بالصبر على المصيبة: ما تبض عينه. وبض الماء سال قليلا قليلا. وبض الحجر ونحوه يبض: نشغ منه الماء شبه العرق. وفي المثل: فلان لا يبض حجره أي لا ينال منه خير، يضرب للبخيل. لسان العرب، ج7، ص118.

(4) استعارة مكنية شبّه فيها المؤلف الأموال والكنوز التي كان يظن النصارى أنها في خزائن الوالي بالبحار.

تحت العذاب، ولحق بمن عنده أم الكتاب[1]، وأذن ملك الرّوم لأهله في غسله وقبره، وأخبرهم بأن ما جرى عليه لم يكن من رأيه ولا عن أمره، واصطفى من بناته من اختار، وسائر أهله قاسوا مع الأسارى الإسار.

(1) إشارة إلى قوله تعالى: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات...". سورة آل عمران، الآية 7. وإلى قوله تعالى: "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب". سورة الرعد، الآية 39.

قصة الجبل

/49/هذا الجبل[1] يمنع من سكنه، وله من الجوانب الوعرة ما حصّنه، وفيه من الخصب والفواكه ما طيبه وحسّنه، وحين غلب الرّوم على الجزيرة سنة ثمان وخمس مائة (508هـ) أنجى أهله من عدوانهم، وعصم من أوى إليه من طوفانهم[2].

فلمّا تمّ على البلد ما تمّ، وخصّ الرّزء باليوم الأشنع والخطب الأفظع وعمّ، نجا إليه الفلّ وهم ألوف، ورجوا أن يشمخ بأنفه الشامخ منهم أنوف[3]، فأنجدهم حين استنجدوا، واحتضنهم كأنه حضن وهم قد أنجدوا، وأصبحت فجاجه وهي بهم قد غصّت، وطاروا إليه وأجنحتهم من القوت قد قصّت[4]. فجمعهم ابن شيري وكتبهم، وانتقى الأنجاد وانتخبهم، وبلغ عددهم عنده في بدء الأمر ستة عشر ألف راجل، بين أصلي وواصل.

---

(1) جاء في وصف جزيرة ميورقة عند الزهري: "وفي وسطها (جزيرة ميورقة) جبل يهبط منه نهر يشق هذه الجزيرة ويسقي جميع أرضها، ويشقّ فضله على مدينة ميورقة". الزهري، الجغرافية، ص129.

(2) كانت جزيرة ميورقة في ذلك التاريخ تحت حكم مبشر بن سليمان، حيث تعرضت لأول غزو نصراني منذ فتحها، وهو الغزو الذي اتحدت فيه جمهوريتا بيزة وجنوة وإمارة برشلونة. وضرب الغزاة على مدينة ميورقة حصارا شديدا، وقاسى المسلمون أهوالا من الجوع والحرمان، ولجأت منهم إلى الجبال المنيعة جموع غفيرة. وتم اقتحام المدينة في أواخر سنة 508هـ/ 1116م وعاث فيها النصارى تخريبا ونهبا وسلبا. وكان في تلك الأثناء قد تلقى الأمير المرابطي علي بن يوسف على يد البحار عبد الله بن ميمون صريخ مبشر بن سليمان قبيل وفاته، فلبت القوات المرابطية نداء الجهاد وحررت الجزيرة من يد النصارى في أواخر 509هـ. ابن الكردبوس، الاكتفا في أخبار الخلفا، ص 122 وما بعدها. ابن خلدون، العبر، مج 4، ص 198. الحميري، الروض المعطار، ص 567.

(3) استعارة مكنية شبه فيها المؤلف الجبل الشاهق الطويل بالإنسان حين يرفع أنفه عزا وتكبرا وترفعا.

(4) استعارة مكنية شبه فيها المؤلف الميورقيين الفارين من النصارى بالطيور.

فأما عدد الرؤوس فيه فكانوا يقدّرون بخمسين ألفا، سقطوا عجفا[1] وضعفا، ونسف الحمام والحُسام أرواحهم نسفا، فنزلوا عند رأيه، وأطاعوه في أمره ونهيه، وحصّن الحصون الثلاثة، ومنّاهم المعونة والإغاثة، وتعاهد المصالح، وجعل على المسالك مسالح[2]، فكانوا مع القوة يهبطون إلى السّهل لطلب الميرة، ويجدون حاجتهم من الأطعمة الكثيرة، وربّما تلاقوا مع الرّوم فظهروا عليهم ظهورا مستغربا، وأخذوا من خيلهم مغربا، ومن رجالهم مغرّبا.

ولقد هابهم الرّوم أوّل الحال،/50/ونادى إمام ضلالهم عند وابل وبالهم ألاّ صلّوا في الرّحال، لكن هؤلاء يقاتلون ووراءهم القوة والنجدة، والعدد والعدّة، وهؤلاء يجالدون والرّبا فيهم قد فشا، والقرّ لا يكسر سَوْرَتَهُ حرّ الحشى، والجوع قد قعد بمن مشى، وعدم المنتاش فتوهمه الناظر أنه قد انتشى.

وكتبوا إلى أهل منورقة[3] أن يمدّوهم بالطعام، ويعينوهم على المقام،

---

(1) العجف: ذهاب السِّمَنِ والهزال. والتعجيف: سوء الغذاء والهزال. وقد عجِفَ وعَجُفَ فهو أعجف وعَجِفٌ، والأنثى عجفاء وعجِفٌ والجمع عِجافٌ. قال تعالى: "يأكلهن سبع عجاف"، هي الهزلى التي لا لحم عليها ولا شحم ضربت مثلا لسبع سنين لا قطر فيها ولا خصب. والعجفاء هي المهزولة من الغنم وغيرها. لسان العرب، ج9، ص233.

(2) المسلحة: القوم الذين يحفظون الثغور من العدو، سمّوا مسلحة لأنهم يكونون ذوي سلاح، أو لأنهم يسكنون المسلحة وهي كالثغر والمرقب يكون فيه أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له. واحدهم مسلحي. والمسلحي أيضا: الموكل به والمؤمّر. لسان العرب، ج 2، ص 487.

(3) ثانية جزر البليار من حيث المساحة التي تبلغ حوالي 700 كلم مربع، ويصل طولها إلى حوالي 48 كلم ومتوسط عرضها حوالي 16 كلم. وهي تبعد عن جزيرة ميورقة بحوالي 40 كلم. وقد اشتهرت بخصوبتها وكثرة الزرع والكروم والأبقار، وهو ما يشير إليه الزهري قائلا: "ومما يلي هذه الجزيرة (ميورقة) في الشرق جزيرة منورقة، وهي صغيرة كثيرة الزرع والكرم وليس في =

فأجابوهم بأنهم يعطونه منه جملة كثيرة تزلفا بهذه المأثرة، ويبيعون منهم مثلها نسيئة إلى وقت الميسُرَة. وعلم النصارى ذلك فجعلوا على الطريق من أجفانهم مانعا من الإجازة، قاطعا للسّفر في تلك المفازة، فاشتد الغلاء بعدم الغلّة، وعُدِم من يقوم بسدّ المهمّين الثغر والخلّة[1].

ورقى النصارى إليهم في بعض الأيام فصدقوهم القتال، وأجالوا عليهم الأوجال، وثبت المسلمون لهم بثبوت صاحبهم، وفلّوا مضارب الظبي من مضاربهم، وقتلوا منهم نحو السّبعين رجلا، لم يتركوا للذئب وللنسر فيهم أملا، فإنهم أكلوا منهم وتزودوا، وذلك بعدما أفنوا بقايا الزاد وأنفذوا، وأنسوا بهذا الترخص، وشرهوا إلى القتال الدّاخل في باب التقنص، فكانوا يقاتلون من جاءهم، ويقتسمون أسلابهم وأشلاءهم، ووجدوا في لهواتهم حلاوتهم.

= معمور الأرض أطيب من لحم بقرها، ولقد يطبخ فيذوب كما يذوب الشحم ويصير زيتا، والغنم فيها قليلة". ويضيف ابن سعيد قائلا: "وهي مستطيلة قليلة العرض وفي وسطها حصن مانع". وهو يشير بالحصن المانع إلى القلعة التي ما زالت حتى اليوم في منتصف الجزيرة على قمة جبل مونت تورو ويطلق عليها الإسبان اسم قلعة الملك. ويكتفي ياقوت الحموي بذكر العبارة التالية عن منورقة:"جزيرة عامرة شرقي الأندلس قرب ميورقة". وجاء عنها في الروض المعطار:"جزيرة تقابل برشلونة بينهما مجرى وبينها وبين سردانية أربعة مجار وهي إحدى بنتي جزيرة ميورقة". سيطر عليها ألفونسو الثالث ملك أرغون سنة 686هـ/ 1287م. الزهري، الجغرافية، ص129. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 129. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 216. الحميري، الروض المعطار، ص 549.

(1) الخلّة: الفرجة بين الشيئين، والثقبة الصغيرة، وقيل هي الثقبة ما كانت، وفي الحديث: يخرج الدجال خلّة بين الشام والعراق أي في سبيل وطريق بينهما، قيل للطريق والسبيل خلّة لأن السبيل خلّ ما بين البلدين. لسان العرب، ج11، ص 213.

وشاهد الرّوم ضرّهم وضراوتهم،/51/فزحف إليهم خميسهم[1]، وأتتهم من بين أيديهم ومن خلفهم في تلك الأساليب أباليسهم.

وكانت بينهم وقائع ثبت فيها ابن شيري مع كرام من أصحابه باعوا بالجنة أنفسهم، وقبلهم رضوان وفي مجالس السّعداء أجلسهم، وفي آخرها جاءته الشّهادة، وتلقته من ربّه الحسن والزيادة، وصار إلى الله مجاهدا في ذاته، صابرا على جهاده من الحدّ في آياته، وذلك ضحى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر من سنة ثمان وعشرين وستمائة(10 ربيع الثاني 628هـ)، ومولده رحمه الله تعالى يوم الجمعة غرّة شوال من سنة إحدى وخمسين وخمس مائة(551هـ)، وجدّه شيري رومي الدّين وعليه فتحت الجزيرة[2]، وله ولسلفه

(1) الخميس: الجيش، وقيل الجيش الجرار، وقيل الجيش الخشن. وسمي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة. وقيل سمي خميسا لأنه تخمس فيه الغنائم. لسان العرب، ج6، ص70.

(2) ومن الداخلين إلى الأندلس، من آل جبلة بن الأيهم الذي ستأتي ترجمته في الهامش الموالي، مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني فاتح قرطبة. سباه الأمويون من الروم بالمشرق وهو صغير، فنشأ بدمشق وأدّبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها فقدّمه لفتح قرطبة ففتحها، وأنجب في الولادة وصار منه بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة وسادوا وعظم بيتهم وتفرعت دوحتهم. ومنهم عبد الواحد بن مغيث الذي كان حاجبا لعبد الرحمن الداخل الأموي ثم لهشام ابنه، وكانت وفاته في أيام الحكم الرّبضي سنة 191هـ، وقد خلّف ثلاثة من الأبناء كان لهم مكانة عظيمة في أيام هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم، وهم عبد الملك وعبد الكريم وعبد الحميد. أما الأولان فقد كانا من أعظم القواد العسكريين في أيام الأميرين هشام والحكم الربضي، سيما عبد الكريم الذي بدأ نجمه يلمع منذ إمارة هشام، إذ ولي على كورة جيان، وأغزاه في سنة 178هـ إلى ألبة والقلاع. وكان هشام قد وجه أخاه عبد الملك بن عبد الواحد في الوقت نفسه إلى إفرنجة، فانتهى كلاهما إلى بلاد العدو وأصاب غنائم كثيرة. وفي السنة الموالية قاد عبد الكريم حملة على أشتوريس فوصل إلى استرقة ففتحها. وفي سنة 200هـ غزا بلاد ألبة والبشنكس فهزم جيوش الفونسو الثاني ملك أشتوريس. وكانت وفاته سنة 209هـ بعد أن وصل إلى أكبر مناصب الدولة ومنها الوزارة والقيادة والكتابة والحجابة. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص135. المقري، نفح

قبله فيها المنزلة الشهيرة الكبيرة. ويعتزي إلى جبلة بن الأيهم[1] الذي خاف القصاص وقد بدرت منه لطمة، وعرف أنها من الفاروق رضي الله عنه عزمة، فخرج إلى ملك الرّوم من حينه، ولحق به عائذا به، عائدا[2] في دينه، وخبره مذكور، ونسبه في غسّان مشهور.

ولما استشهد رحمه الله اختل بعده الأمر جملة، وعدم بقايا المسلمين بينهم وُصلة، ولجأوا إلى بعض رِعان[3] الجبل، وهم في غاية الوله والوهل، وأرسل الله بالشتاء والثلج كل عارض وكاف، فمات منهم هنالك نحو ثلاثة آلاف، وغلبهم الرّوم، ونفذوا القدر المحتوم، وبيعَ/52/الأسارى بالثمن البخس، وغار لهم نجم السّعد[4] واستولى طالع النحس، فاهلكوا وأبيدوا،

= الطيب، ج3، ص 12. ابن سعيد المغربي، المغرب، ج1، ص 40، 44، 50. ابن عذاري، البيان، ج2، ص 48، 64، 65، 69، 75، 80، 82.

(1) آخر ملوك الغساسنة ببلاد الشام واسمه الكامل جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن الغساني. استفحل ملكه، ولما افتتح المسلمون الشام أسلم جبلة وهاجر إلى المدينة. وأحسن الخليفة عمر نزوله وأكرم وفادته وأجلّه بأرفع رتب المهاجرين. ثم طلبه للقصاص بعد أن لطم رجلا من المسلمين وطئ فضل إزاره وهو يسحبه في الأرض. فرفض الامتثال وارتد عن الإسلام ورحل إلى قيصر الروم وأقام بالقسطنطينية حتى مات سنة 20هـ. وقد ندم ولم يزل باكيا على فعلته تلك، وكان يبعث بالجوائز إلى الشاعر حسان بن ثابت لما كان منه في مدح قومه ومدحه في الجاهلية. المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص 102. ابن خلدون، العبر، مج2، ص326.

(2) جناس ناقص بين " عائذا وعائدا ".

(3) الرّعن: الأنف العظيم من الجبل تراه متقدّما والجمع رعان ورعون. وقيل: الرّعن من الجبال ليس بطويل، وقيل هو الطويل. ومنه قيل للجيش العظيم أرعن أي له فضول كرعان الجبل. لسان العرب، ج 13، ص 182.

(4) والجمع سعود وهي الكواكب التي يقال لكل واحد منها سعد كذا، وهي عشرة أنجم كل واحد منها سعد، أربعة منها منازل ينزل بها القمر، وهي: سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وهي في برجي الجدي والدلو. وستة لا ينزل بها القمر وهي: سعد ناشرة، =

وأُسِروا وقيدوا، وصار قصصهم عبرة، وملأ مصابهم القلوب حسرة.

وأما الحصون الثلاثة[1] فإنها امتنعت حتى صُولِحَ أهلها على السياحة في الأرض، والسماحة لهم بثلث ما عندهم من النقد والعرض، وطلبوا أن يكون نزولهم للملك وبمشهده، وكان قد صدر عن الجزيرة إلى بلده، فخوطب بالحديث، وجاءهم بالعزم الحثيث، فنزلوا على سلم محلية، وركبوا الأمر بهيما[2] لا شيء عليه من سية، وسُيّروا في سفن رومية، وأخذ الكراء على الضعيف ممّن خرج ببقية، فلحق المترب بالتّرِب، وثووا من حال الفاقة بالمحل الخرب، وباستخلاص هذه المعاقل الثلاثة خلصت الجزيرة لأهل التثليث، وبتسلّمها نفض الإسلام منها يده[3] وهذا آخر الحديث.

=

وسعد الملك، وسعد البهام، وسعد الهمام، وسعد البارع، وسعد مطر، وكل سعد منها كوكبان بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع وهي متناسقة. لسان العرب، ج 3، ص 213.

(1) منها حصن بنيولا الجبلي الواقع شمال غرب مدينة ميورقة، وفيه كانت أولى الهزائم التي ألحقها الميورقيون بالنصارى قبل فرضهم الحصار على المدينة. وحصن الأرون الذي كان الملك خايمي قد تركه أثناء زحفه من بوراسا إلى بورتوبي في بداية حملته على جزيرة ميورقة. وقد حاصر هذا المعقل الفائق الحصانة المرتد ابن عبّاد الذي أسهم بدور كبير في الاستيلاء عليه وتسليمه للنصارى.

Clements Markham . The story of Majorca and Minorca. p 34.

(2) البهيم والجمع بهم، بالضم: وهو المجهول الذي لا يعرف. واستبهم عليهم الأمر: لم يدروا كيف يأتون له. واستبهم عليه الأمر أي استغلق. أنشد الأعرابي قائلا:

أعيينني كل العيـاء فلا أغر ولا بهيم

والشطر الثاني من البيت هو في الأصل مثل يضرب للأمر إذا أشكل ولم تتضح جهته واستقامته ومعرفته. لسان العرب، ج12، ص56. الميداني، مجمع الأمثال، مج2، ص 252.

(3) استعارة مكنية شبّه فيها الكاتب الإسلام بالكائن الحي الذي له يد ولكنه حذف المشبه به وترك أحد لوازمه.

والحمد لله الذي بيده البسط والقبض[1]، وبإذنه تقوم السماء والأرض[2]، وصلّى الله على نبيه الذي به عرفت السنة والفرض، وبتأييد الله له أحاط بعدد الشرك وعقده النقص والنقض[3].

---

(1) طباق الإيجاب بين " البسط والقبض ".

(2) طباق الإيجاب بين " السماء والأرض ".

(3) جناس ناقص بين " النقص والنقض ".

فهرس الأعلام والأماكن والبلدان

الواردة في المخطوط

ـ أ ـ

ابن عبّاد عامل بلانسة: 114، 144.

ابن الخطّاب عمر (الخليفة الثاني): 86.

أبو إبراهيم إسحاق بن محمد بن غانية المسوفي: 73.

أبو بكر الصدّيق (الخليفة الأول): 74.

أبو حفص بن شيري: 93، 129.

أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصي: 63، 126.

أبو عبد الله محمد بن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن: 63.

أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي: 94.

أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم خطيب ميورقة: 118.

أبو يحيى التنملّي والي ميورقة: 81، 118، 122، 125، 133، 136، 137.

الأندلس: 122، 133، 141.

أرغون (أراجون): 92، 134.

إفريقية: 66، 126.

- ب -

باب الكحل: 108، 109.

برشلونة: 70، 92، 121، 139، 141.

بلنسية: 63، 64، 66، 90، 92.

بنشكلَة: 90، 91.

- ج -

جاقمه بن بطر بن أدفونش (خايمي الأول): 63، 66، 67، 68، 73، 92، 96، 99، 103، 111، 114، 115، 121، 144.

جبلة بن الأيهم الغساني: 143.

جنوة: 70، 72.

- س -

سردانية: 91.

سيف بن ذي يزن: 72.

- ش -

شنت بوصة (مرسى): 98.

- ط -

طرطوشة: 70، 98.

- ع -

العدوة المغربية: 66، 84، 105.

- ق -

قدار بن سالف (عاقر الناقة): 72.

القومط نونة: 122، 133.

- م -

مرسى شلوط: 77.

مرسى يابسة: 66، 67، 70.

مسيلمة الكذاب: 74.

منورقة: 140.

ميورقة: 63، 64، 65، 67، 72، 74، 79، 80، 90.

- و -

وادي كونة: 91.

- ي -

يابسة: 66، 67، 70.

- ابن الأبار أبو عبد الله محمد، التكملة لكتاب الصلة. تحقيق عبد السلام الهراس. الدار البيضاء: دار المعرفة، 1995.
- ابن الأبار أبو عبد الله محمد، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1967.
- ابن الأبار أبو عبد الله محمد، الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف، 1985م.
- ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتاب العربي، 1983.
- ابن أنس أبو عبد الله مالك، الموطأ. إعداد أحمد عرموش. بيروت: دار النفائس، 1982.
- ابن أبي دينار محمد الرعيني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. بيروت: دار المسيرة، 1993.
- ابن أبي زرع علي بن عبد الله، الأنيس المطرب بروض القرطاس. الرباط: دار المنصور، 1973.
- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد، الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق عنان محمد عبد الله. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1975.
- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد، أعمال الأعلام. نشره ليفي بروفنسال. بيروت: دار المكشوف، ج2، 1956.
- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، كتاب العبر وديوان المبتدأ

والخبر. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.

- ابن خلكان أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت:دار القلم، 1971.
- ابن زيدان عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس. تقديم عبد الهادي التازي. الدار البيضاء: مطابع إديال، 1990.
- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب. تحقيق شوقي ضيف. القاهرة: دار المعارف، 1964.
- ابن شريفة محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره. الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1966.
- ابن صاحب الصلاة عبد الملك، تاريخ المن بالإمامة. تحقيق عبد الهادي التازي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987.
- ابن عبد الملك أبو عبد الله محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة. بيروت:دار الثقافة. الرباط: مطبعة المعارف، 1974- 1984.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. بيروت: دار الثقافة. والقسم الخاص بالموحدين. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.
- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. تحقيق محمد الأحمدي. القاهرة: دار التراث، 1972.
- ابن القاضي أحمد المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط: دار المنصور، 1973.

- ابن الكردبوس أبو مروان عبد الملك، الاكتفاء في أخبار الخلفاء. مدريد: صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1971.
- ابن المستوفي شرف الدين الأربلي، نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل، تحقيق سامي بن السيد خماش الصقار.
- ابن منظور أبو الفضل محمد، لسان العرب. بيروت: دار صادر، 1992.
- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- الإدريسي أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1994.
- أرسلان شكيب، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، القاهرة: المطبعة الرحمانية، 1936.
- أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 1996.
- ألبارو كامبانير، تخطيط تاريخي للحكم الإسلامي في جزر البليار، بلما دي ميورقة، 1888.
- أمبروسيو هويثي ميرندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية. ترجمة عبد الواحد أكمير، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2004.
- آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي.ترجمة حسين مؤنس. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1955.

- البكري أبو عبيد، المسالك والممالك. تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري. تونس: الدار العربية للكتاب، 1992.
- الحموي أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1984.
- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، 1984.
- الرافعي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، بيروت: دار الكتاب العربي، ط4، 1974.
- الزركلي خير الدين، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، 1995.
- الزهري أبو عبد الله محمد، كتاب الجغرافية. تحقيق محمد حاج صادق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ.
- الزيات أحمد ، تاريخ الأدب العربي. بيروت: دار الثقافة، بدون تاريخ.
- السوسي محمد المختار، المعسول. الدار البيضاء: مطبعة النجاح، 1961.
- السيد سابق، فقه السنة. بيروت: دار الكتاب العربي، 1985.
- الطبري أبو جعفر محمد، تاريخ الأمم والملوك. بيروت: دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
- العبدري أبو عبد الله محمد، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط: وزارة الشؤون الثقافية، 1968.

- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994.
- عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية، بيروت:دار العلم للملايين، 1984.
- عنان محمد عبد الله، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القسم الأول والثاني، 1964.
- عنان محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1961.
- عودة عبد القادر، التشريع الجنائي الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 1984.
- الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية. تحقيق رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط5، 1981.
- الفيروز أبادي محمد بن يعقوب، القاموس المحيط. ضبط وتوثيق يوسف البقاعي، بيروت: دار الفكر، 1995.
- المجالي سحر عبد المجيد، تطور الجيش العربي في الأندلس. الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1996.
- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1978.

- المقدسي أبو محمد عبد الرحمان، الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت: دار الجيل، دون تاريخ.
- المسعودي أبو الحسن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1989.
- المقري أبو العباس أحمد، نفح الطيب. تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1968.
- المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1996.
- مؤنس حسين، تاريخ الجغرافيا في الأندلس. منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، 1967.
- الميداني أبو الفضل أحمد، مجمع الأمثال. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ط2، دون تاريخ.
- ميجيل الكوبير، الإسلام في ميورقة. بلما دي ميورقة، 1934.
- النجار عبد الوهاب، الخلفاء الراشدون. بيروت: دار القلم، 1986.
- النخيلي درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، 1974.

المحتوى

التقديم.. 3

مؤلّف الكتاب.. 3

مؤلفات ابن عميرة.. 11

عنوان الكتاب.. 17

الباعث على تأليف الكتاب.. 19

تاريخ تأليف الكتاب.. 20

أسلوب الكتاب.. 22

محتوى الكتاب.. 25

ميورقة قبل السقوط.. 25

والي ميورقة أبي يحي التنملّي.. 29

بوادر العدوان الصليبي على ميورقة.. 32

الاستعداد للحرب.. 34

تصدّع الجبهة الدّاخلية الميورقية عشية العدوان الصليبي.. 35

الصدام المسلّح وفرض الحصار على مدينة ميورقة........................ 43

سقوط مدينة ميورقة.. 47

المخطوط وطريقة التحقيق.. 51

مقدّمة المؤلّف.. 61

ابتداء أمر الجزيرة بالأخبار عن أميرها وتوليه لتدبيرها إلى وقت تدميرها.. 63

وصف ما جرى من الجزيرة التي هاجت الرّوم لغزو الجزيرة.......... 66

قصة المسطّح والمركب.. 70

حديث ملك الرّوم حين عاد إليه رسوله من مراده مخفقا وللخبر المثير لأحقاده محققا... 76

وصف ما نشأ أثناء هذا التدبير من تهييب الرّوم لهذا المرام الكبير...... 79

سبب اختلاف الرّعية الجاني على البلد أعظم البلية................... 81

حديث ما كان بالجزيرة من النظر حين ورد بحركة الرّوم صحيح الخبر.. 84

ذكر الثورة التي كانت باكورة البطشة الكبيرة وأوّل بلاء نزل من السّماء على الجزيرة.. 86

قصّة الغراب وتجهيزه بالحث وتوجيهه في البحر للبحث............ 90

بيان ما أحدثه الوالي ممّا أضرم نار الحرقة وأبرم أسباب الفرقة......... 93

حديث مفاجأة الأسطول وإطلاله على الساحل للنزول............ 95

خبر الرّوم حين تأهّبوا بالمرسى المذكور وتهيّأوا من عبره للعبور....... 99

عاد الحديث عن إطلالهم على البر وإطلاقهم أعنة الشر.............. 102

حديث الوقعة الكبرى................................ 104

قصّة الحصار وما حفظ فيه من الأخبار........................ 108

حديث اجتماع أهل البادية لإصراخ الحاضرة ومناجزة فئة الكفر الحاصرة................................ 112

ذكر ابن عبّاد ومصيره إلى ارتداء الخزي بالارتداد................ 114

نظر أهل البلد في بعث النُذُر لتلافي هذا الأمر النُكُر............. 116

رجع الحديث إلى أمر الحَصْرِ وما أخطأ أهل البلد بإصابة القدر من النّصْرِ................................ 120

وصف ما جرى من الرأي المدار عندما شامه الناس من بوارق البوار....... 125

فرار ولد الوالي................................ 127

خروج أبي حفص بن شيري من البلد وتمام الأخبار عن مفارقة روح الإيمان لذلك الجسد.. 129

خبر الوالي بعد انقضاء حربه إلى أن صار إلى جزاء ربّه............ 136

قصة الجبل... 139

فهرس الأعلام والأماكن والبلدان الواردة في المخطوط............. 146

المصادر والمراجع المستخدمة في الدراسة والتحقيق................ 149

المحتوى.. 155

TĀRĪḪ MAYŌRQAH
(History of Majorca)

by

Abu al-Muṭarrif Aḥmad ben ᶜUmayrah

Edited by

Dr. Muḥammad ben Maᶜmar

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon

هذا الكتاب

لا يقدم لنا هذا الكتاب تاريخاً شاملاً ومفصلاً لجزيرة ميورقة خلال عهودها الإسلامية المتعاقبة حسبما يوحي به العنوان، ولكنه يؤرخ للعهد الأخير منها (٦٠٦ - ٦٢٨هـ/١٢٠٩ - ١٢٣٠م) ويعالج مرحلة السقوط النهائي لها على يد الإسبان مع التركيز على الأسباب والعوامل وأطوار السقوط، لذلك نجد في مصادر ترجمة المؤلف العبارة التالية: «وله تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها»، والكائنة هي الحادثة، وهي عبارة بليغة تعبر عن المحتوى الحقيقي للكتاب.

ذكر المؤلف أبو المطرّف أحمد بن عميرة المخزومي (ت ٦٥٨هـ) في مقدمة الكتاب أن الباعث على تأليفه كان بطلب من أحد إخوانه من أهل جزيرة ميورقة. وكان هذا الرجل الذي لم يذكر ابن عميرة اسمه من أثرياء الجزيرة وأغنيائها وأصحاب الجاه فيها أي كان مترباً كما قال المؤلف، ثم عاد ترباً أي فقيراً قليل المال في ديار الغربة بعد سقوط ميورقة في يد النصارى. وكما أهمل المؤلف ذكر اسم هذا المترب، بخل علينا أيضاً بتحديد المدينة أو البلد الذي لجأ إليه وصار فيه ترباً.

ولم يقتصر المؤلف على إهمال ذكر المكان الذي استجاب فيه لتأليف الكتاب، بل سكت عن تاريخ التأليف أيضاً، ولم نجد من بين الذين ترجموا له من ملأ هذا الفراغ، لذلك فلسنا نعلم بالضبط متى ألّف ابن عميرة هذا الكتاب غير أننا متأكدون من أنه قد ألّفه خلال الفترة الممتدة ما بين سنة ٦٢٧هـ تاريخ سقوط جزيرة ميورقة وسنة ٦٥٨هـ تاريخ وفاته. وكما هو معلوم فإن هذه الحقبة الممتدة على ثلاثة عقود وهي المرحلة الأخيرة من حياة المؤلف، قد قضى العقد الأول منها (٦٢٧ - ٦٣٧هـ) في شرق الأندلس متنقلاً بين قواعده، وقضى العقد الثاني (٦٣٧ - ٦٤٦هـ) في حواضر المغرب الأقصى، وأنهى العقد الأخير (٦٤٦ - ٦٥٨هـ) في مدن إفريقية.

ISBN 2-7451-5596-2
90000
9 782745 155962
Designed & Printed By: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
هاتف 11/12/ 804810 5 961+
فاكس 804813 5 961+
http://www.al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
دار الكتب العلمية®
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971